(٧)

الإمبراطورية والإرسالية والحرب

كانت الظاهرة التى عرفناها بأنها خصائص وأعراض الشعب المختار عاملاً فى التاريخ الإنجليزى بقدر ما كانت عاملاً فى التاريخ الأمريكى. وجنبًا إلى جنب مع التوسع التجارى والعسكرى قدمت قوة رائعة لتأسيس ما سمى فيما بعد بالإمبراطورية البريطانية الثانية؛ إذ كانت الإمبراطورية الأولى هى التى قامت فى أمريكا الشمالية (والتى لم تبق منها سوى كندا ونوڤا سكوشيا). كانت القوة الدافعة إلى تأسيس الإمبراطورية الأولى دينية إلى حد كبير - تمثلت فى رغبة البيوريتان فى امتلاك أراض يمكنهم فيها ممارسة معتقداتهم دونما إزعاج - وكذلك كانت الإمبراطورية الثانية وإن كانت أسبابها مختلفة تمامًا. ومثلما حدث مع الإمبراطورية الأولى، اختلطت الدوافع العليا بالدوافع الأدنى، المثالية مع السعى وراء الربح، واللتان أمكن التوفيق بينهما تحت مبدأ «أن الرب يساعد من يساعدون أنفسهم»، أو بمصطلحات أكثر كالڤينية: «إن الله يغدق نعمته على أولئك الذين يعملون بإرادته». بيد أن البيوريتان كان لديهم اعتقاد كالڤينى بالمصير المقرر سلفًا - أى أن الرب قد قدر سلفًا من سيكونون الشعب المختار الذى سيذهب إلى السماء [أى المكتوب أو المقدّر]. وعلى الرغم من أن الإنجيليين فى القرن الثامن عشر كانت لهم جذور قوية فى المذهب الكالڤينى، فإنهم اختلفوا بشكل عام حول هذه النقطة.

وكان المبشر الإنجيلى الذى يمثل النموذج الأصلى هو چورچ هوايتفيلد، وهو قس أنجليكانى وجهت عظاته الصحوة الكبرى الأولى فى كل من انجلترا وأمريكا الشمالية فى منتصف القرن الثامن عشر. وكان متحالفًا بشكل وثيق مع چون

وتشارلز ويسلى، وكان اهتمامه الأساسى مثلهما موجهًا إلى التبشير الحماسى بالإنجيل وليس إلى القواعد الكنسية. وقد كسروا القواعد حيثما كانت هناك ضرورة لذلك ـ فقد أدى قرار چون ويسلى بترسيم القساوسة للكنيسة الأمريكية إلى قطيعة محددة مع السلطات الأنجليكانية، وإلى ظهور فرقة منشقة عرفت باسم الميثودية (المنهجية). ويبدو أن أحدًا من الإنجيليين الأوائل لم يتخذ خطًا كالڤينيًا صارمًا يتعدى القدرية؛ وعلى الرغم من أن «هوايتفيلد» سمى نفسه كالڤينيًا، ولم يفعل چون وتشارلز ويسلى ذلك؛ إذ إنهما مالا تجاه الكالڤينية المعدّلة لـ«جاكوبويس أرمينيوس»، الذى كان معاصرًا تقريبًا لكالڤن الذى أراد أن يؤكد على دور الإرادة الحرة فى عملية الخلاص.

وكانت الأرمينية فى طريقها لأن تصبح الانشقاق القياسى عن الكالڤينية الصارمة فى المذهب الأنجليكانى فى ذلك الوقت، وكانت بمثابة حل لمعضلة أن القدرية الخالصة بدت وكأنها تدين وتردى إلى الجحيم بكثير جدًا من الناس الذين لم يكن لديهم خيار فى المسألة، وهو ما بدا دعاية سيئة لحب الرب. وكان هوايتفيلد وويسلى والإنجيليون يعتقدون أن الرب يحب كل روح بشرية ويرغب فى خلاص الجميع، وليس مجرد قلة مختارة. وهذا الخلاص يمكن كسبه بالإيمان، والذى يتجلى معظمه فى لحظة معينة من الزمن، وهى لحظة اعتناق الدين، حينما تستجيب الروح بشكل جذرى للتبشير بكلمة الرب. فى هذه اللحظة كانت الروح (كما لو أنها) وُلدت من جديد، أو وُلدت مجددًا على حسب وصفهم هم. وهكذا فإنهم جميعًا وضعوا الأهمية على اجتماعات الصلاة العامة المشحونة عاطفيًا، حيث يكون هناك مبشر بارز يناضل هناك فى تلك اللحظة؛ لكى «يكسب الأرواح من أجل المسيح» بقوة فصاحته. وكان جوناثان إدواردز هو المثال الأمريكى الرائد على هذا النمط، وعلى الرغم من أنه لم يتخل أبدًا عن القدرية بشكل كامل فقد طورها إلى مفهوم أكثر تفاؤلاً. إذ كان إدواردز، بقدر ما كان مبشرًا مؤثرًا، فيلسوفًا ولاهوتيًا عظيمًا أيضًا، وعيّن رئيسًا لجامعة پرنستون قبل موته بوقت قصير.

وفى زمن الصحوة الأولى كان الفرق بين أرمينية ويسلى المعدّلة وكالڤينية

هوايتفيلد وإدواردز المعدّلة قد بات نظريّا أكثر منه عمليّا. وفى كل من الحالتين كانت النظرية هى أن ما يهم هو استجابة الفرد إلى التبشير بكلمة الرب. وسواء كان مقدراً له أن يقوم بهذه الاستجابة، أو أنه قام بها بدافع من اختياره الحر، فإن ذلك لم يحدث سوى فرق قليل فى المحصلة العملية؛ إذ إنه كان ينتقل، أى يتحول، صوب الإيمان. وكانت أهمية هذه الفكرة هائلة؛ لأنها كانت تعنى أن الفرصة للخلاص متاحة لكل واحد. وكانت المسيحية البروتستانتية قد صارت طريقًا عالميًا إلى الخلاص، ولم تعد قاصرة على نخبة مقدرة سلفًا، وكان يمكن التبشير بها فى أوساط «الهنود الحمر المتوحشين»، كما كان يمكن التبشير بها بين العبيد الأفريقيين، ولم يعد الخلاص محفوظًا للرجل الأبيض نظريًا. **وفى عملية الخلاص مرّ مفهوم الشعب المختار بثورة، بيد أنها كانت أبطأ كثيراً مما كان ينبغى لها؛ لأن العادات القديمة ماتت بصعوبة فى هذه المنطقة مثلما يحدث فى أى مجال آخر. والتوسع النظرى لمفهوم الشعب المختار باعتناق المسيحية لم يغير عادة اعتبار الاختيار أساسًا، حقًا محفوظًا للجنس الأبيض.**

والواقع أنه، كما حدث غالبًا قبل التاريخ المسيحى، كانت هناك فكرتان متصارعتان، هما فى هذه الحالة القدرية والأرمينية «نسبة إلى جاكوبوس أرمينيوس» تعيشان جنبًا إلى جنب، بل إنهما تتطابقان أحيانًا داخل الشخص نفسه. من الأسهل التعامل مع الناس المنطقيين، ولكنهم غالبًا ما يضمرون أفكاراً لا يمكن التوفيق بينها بصورة تبادلية وبرباطة جأش (ولكنهم لا يتسرعون أبداً فى توجيه الشكر إلى الشخص الذى يبرز هذا). **وفكرة أن «المختارين» يشكلون كل المؤمنين فى جميع أنحاء العالم كانت تتعايش مع الفكرة (التى لا يمكن التوافق معها فنيًا) القائلة بأن المختارين هم الأمة الإنجليزية أو الجنس الأبيض، ولا سيما ذلك الجزء من الجنس الأبيض الذى ينتمى إلى الطبقات الوسطى والعليا. وكان هذا يميل بالحتم تجاه وضعية من الدرجة الأولى و وضعية من الدرجة الثانية بين من ينالهم الخلاص ـ كان أصحاب الدرجة الأولى أفراداً مختارين داخل الأمة المختارة.** وكان ذلك زمنًا كان فيه التدرج الدقيق فى المكانة الاجتماعية يلقى قبولاً عامًا باعتباره جزءًا من النظام الطبيعى. إذ لم تكن هناك فقط عربات سكك حديدية

من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ولكن معظم الناس كانوا يعرفون بالغريزة أية طبقة تناسبهم، وكان لا يريحهم السفر فى الدرجة الخطأ، سواء كانت عالية أو متدنية بالنسبة لهم. ولهذا كان التمييز فى الواقع بين الكنيسة المحلية المنشقة - التى تعنى الخارجين ولا سيما الميثودية - والتى تشغل مكانة اجتماعية أدنى «الكنيسة» التى كانت تعنى الأنجليكان. **وفى الدين مثلما هو الحال فى كثير غيرها، كانت المكانة الاجتماعية تقاس ضمنًا فى انجلترا بمدى «المسافة من التاج»، والذى كان من يرتديه، تحديداً، هو قمة الهرم الطبقى.**

لقد كان لا بد لشعب العهد القديم أن يولدوا فيه؛ لكى يكونوا هم الشعب المختار. وكان من الممكن أن يصير المرء يهوديًا إذا ما اعتنق اليهودية، بيد أن ذلك لم يكن أمراً سهلاً وكان نادراً للغاية. **وفى ظل الانصهار الكامل بين الكنيسة والدولة بعد «هنرى الثامن»، كان كل مواطن إنجليزى يفترض أنه مسيحى أنجليكانى فى عرف قانون البلاد.** وفى هذا الصدد لم تكن مكانة غير الإنجليزى واضحة بالمرة. ففى أيرلندا مثلاً، كانت عضوية كنيسة انجلترا - التى أعيدت تسميتها الآن كنيسة أيرلندا - تكاد تكون محصورة تمامًا فى نطاق أولئك الذين ينحدرون من أصول إنجليزية. ولم يخطر أبداً ببال «كرومويل» أن يحول الكاثوليك فى دروغيدا أو ويكسفورد إلى الأنجليكانية بدلاً من اغتيالهم: فقد كانوا فى نظره مثل الكنعانيين الذين اغتالهم بنو إسرائيل القدماء. وفى كل من ويلز وأيرلندا تم تأسيس الفرع المحلى من كنيسة انجلترا بالقانون، وهو ما كان يعنى أن من واجب كل المواطنين أن يدفعوا الضرائب الكنسية لها - أى العشور - أيًا كانت معتقداتهم الدينية. ولم يحدث فى أيرلندا أو فى ويلز أن كان لكنيسة انجلترا أتباع كثيرون. وتم تأسيس كنيسة أيرلندا سنة ١٨٧١م كجزء من عملية التخفيف عن الكاثوليك، كما كان تأسيس الكنيسة الأنجليكانية فى ويلز سنة ١٩٢٠م كجزء من عملية مشابهة تحاول التخفيف عن المنشقين (والميثوديين بصفة رئيسية). والكنيسة الأبسكوبية الاسكتلندية كنيسة أنجليكانية، ولكنها ليست مؤسسة وليست لها روابط مع كنيسة اسكتلندا وهى كنيسة بريسبتارية (ولكنها مؤسسة).

وإلى أن جاء الإنجيليون بمذهبهم البروتستانتى الذى يصلح عالميًا، لم يكن الأنجليكان أو البيوريتان (ولا الأنجليكان البيوريتان فى الواقع) قد أظهروا اهتمامًا كثيرًا فى العمل التبشيرى. والواقع أن عملية تنصير الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كانت حتى ذلك الحين قاصرة إلى حد كبير على البعثات التبشيرية الفرنسية والإسپانية الكاثوليكية، ولم يكن هناك ما يعادل سلسلة محطات البعثات التبشيرية الكاثوليكية التى كانت تمتد على ساحل كاليفورنيا، والتى أسسها المبشرون الفرنسيسكان الإسپان فى القرن الثامن عشر (ولا تزال ذكراها عالقة فى أسماء سان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وسكرامنتو، و سان دييجو، وسانتا بربارا، وسانتا كلارا، وسانتا ماريا، وما إلى ذلك).

ولم يكن الاختلاف مجرد مسألة أسلوب أو شخصية؛ إذ إن البروتستانتية ذاتها كانت تمر بثورة شاملة، كانت أصولها متنوعة وغامضة إلى حد ما. وكان التحول فى التركيز من القدرية على الإرادة الحرة مجرد جزء منها فقط، بل إن الأكثر أهمية كان هو التحول من العهد القديم إلى العهد الجديد. ومعها ذهب اهتمام أكبر وتأكيد أكثر على الأهمية الخلاصية للمسيح نفسه. وربما لا تكون مصادفة بحتة أن أول ما ألهم «چون نيوتن» فى اتجاه المسيحية الإنجيلية هى قراءته فى كتاب « Immitation Of Christ» ؛ إذ كان دعوة لقدسية الحياة، وهى دعوة صارت من خصائص المذهب الإنجيلى لا سيما فى شكله الميثودى، ولكنها دعوة خلبت لب ويلبرفورس إلى حد كبير أيضًا. ومع الاهتمام المتجدد بالمسيح تدهور الاهتمام بالعهد القديم، مع تحول تجاه الطريقة الكاثوليكية القديمة التى عرفتها العصور الوسطى، فى قراءة العهد القديم باعتباره نبوءة بقدوم المسيح نفسه، بدلاً من التبشير بالحوادث السياسية فى حياة الأمم.

وتنسب «بربارا توخمان» فى كتابها «Bible and Sword» إلى البيوريتان الإنجليز فضل إرساء أسس اثنين من المبادئ الرئيسية للمجتمع الغربى الحديث، الحكومة البرلمانية والحق فى حرية العبادة. لكن الواقع أكثر ضآلة مما تشير إليه. فقد كان البيوريتان هم الذين شنقوا الكويكرز وجلدوا المعموديين، وكان

«كروموبل» هو الذى أمر رجاله المسلحين بالدخول إلى قاعة البرلمان لحله بالقوة، وهو پيوريتانى فى الأساس! . ونبذ الپيوريتان الرحمة والعفو لصالح الخصائص الأكثر حربية فى العهد القديم: ولكنهم أيضًا مثل الإسرائيليين، حسبما تقول «توخمان»: كانوا يحاربون ضد الأغراب؛ لكى يؤسسوا أسلوبًا جديداً للحياة. وهى تقتبس من مؤرخ القرن التاسع عشر الاقتصادى «وليم كننجهام» الذى قال فى كتابه «Growth of English Industry and Commerce» سنة ١٨٩٦م **إن «الاتجاه العام للپيوريتانية كان نبذ الأخلاق المسيحية وإحلال العادات اليهودية محلها»**. ويستمر فى القول بأن الپيوريتان اتبعوا «خطاب قانون قديم بدلاً من الثقة فيما ينطق به الضمير الذى توجهه المسيحية. . وكان هناك بالتداعى تراجع إلى نمط أدنى من الأخلاقيات التى أظهرت نفسها فى الوطن وفى خارجه».

وتستمر «توخمان» فى القول: «على الرغم من أن الپيوريتان لم يرفضوا العهد الجديد بأية حال، فإن بعض المتطرفين بينهم يرفضون ألوهية يسوع. وحتى الپيوريتان المعتدلون ضمنوا فى التماسهم الألفى إلى جيمس الأول كأحد مطالبهم ألا يطلب منهم بعد ذلك فى الكنيسة أن ينحنوا عند ذكر المسيح. وفى جهدهم لتطهير الدين من الملابس والطقوس والشعائر وما إلى ذلك، عاد المتطرفون إلى الاعتقاد فى الرب الذى لا يمكن أن يشاركه أحد ألوهيته، وهو نفس الاعتقاد الذى يعبّر عنه فى المعبد اليهودى: «اسمعى يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

كذلك ذكر «ماثيو أرنولد» فى كتابه «Culture and Anarchy»، أن المذهب الپيوريتانى كان إحياءً للروح العبرانية كرد فعل للروح الإغريقية التى حركت النهضة. وكان أثرها الدائم على الأمة الإنجليزية هو **«إعطاءها نصيبًا قويًا من ثبات وإصرار وقوة العبرانيين. هذا التحول أوضح نفسه فى المذهب الپيوريتانى، وكان له نصيب كبير فى تشكيل تاريخنا على مدى المائتى سنة الأخيرتين»**.

وليس هناك شك فى أن العهد القديم مفتوح على القدرية أكثر من العهد الجديد. ولكن كون المرء إسرائيليًا كان يعنى بالضرورة أنه من المقربين إذا ما قورن بواحد من الوثنيين. ويكون المرء إسرائيليًا بالميلاد. ولا يختار المرء أن يولد

هكذا، فقد كان ذلك اختياراً لصالحه ولم يكن اختياره. وهنا كان الاعتقاد اليهودى قريبًا من القدرية الكالڤينية. ولم يكن هناك مبشرون يهود، كما كان الذين اعتنقوا اليهودية قلة قليلة. ولكن هناك دائمًا يهود مارقون.

ولكن البروتستانتية الجديدة فيما بعد البيوريتانية، والتى نادى بها هوايتفيلد ونيوتن و ويسلى و ويلبرفورس قدمت إعادة اكتشاف للعهد الجديد. ومعها فكرة المذهب الإنجيلى - أى نشر الكلمة عن طريق التبشير بها، والبحث عن متنصرين جدد أينما يكونوا. وصارت الحدود المغلقة حتى ذلك الحين للشعب المختار مثل خيمة إبراهيم فى الصحراء مفتوحة من كل الجوانب للترحيب بالأغراب. وكان التبشير حتى ذلك الحين يتم أكثر بمصطلحات التحذير من الأشياء المرعبة التى سوف يفعلها الرب إذا لم يحسن الناس سلوكهم. ولم يكن هناك قدر كبير من الحب فيه، أو ما أطلق عليه الإنجيليون المحدّثون فيما بعد «المنتهى».

ومن ثم فإن أهمية المذهب الإنجيلى الذى نادى به هوايتفيلد و ويسلى كانت هائلة بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية البريطانية. فبدون إعدادهم، لما كان لـ«ويلبرفورس» وطائفة الكافلام مثل هذا التأثير. **لقد كان انتصار الإنجيليين الأنجليكان على الرق فى بداية القرن التاسع عشر هو الذى فتح حقًا أبواب التبشير المغلقة؛ إذ إن منع تجارة الرقيق صار بمثابة نقطة القفز للتوسع الثانى للإمبراطورية. فقد رأى البريطانيون أنفسهم كشعب نبيل بالقدر الذى جعلهم يحرّمون التجارة فى الرقيق، وأنهم شرفاء بحيث استمروا فى عملية حصار بحرى لهذا الغرض على مدى أربعين سنة أخرى، وأنهم يضحون لدرجة أنهم فعلوا هذين الأمرين على نحو كبدهم نفقات جسيمة، وخلصوا من هذا إلى أنهم مناسبون بالتأكيد لحكم العالم وتعليمه ديانتهم. والواقع أن مثل هذه الكلمات - نبيل، وشريف، ومستعد للتضحية - كانت هى بالضبط الدوافع النابعة من الضمير لأولئك الذين قاموا بالتوسع، واستوطنوا وحكموا الإمبراطورية. وفوق هذا وذاك كان ثمة إحساس بالواجب. وكان الأمر كما لو أن الإنجليز أحسوا بقناعة أنهم محظوظون؛ لأنهم من ذلك الجنس وتلك الأمة التى يدينون لها بدين، وكان هذا الدين كبيراً بحيث لا يمكن**

الوفاء به مهما فعلوا، على الرغم من أنه تعين عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم. ولذلك كان الموت فى سبيل القضية لا يعد شيئًا استثنائيًا: فالواقع أن كثيرين منهم تحدثوا عنه كما لو كان امتيازاً.

وحقيقة أن بعضهم أيضًا كوّنوا ثروات كبيرة أثناء العملية، وأنهم كانوا جميعًا على قناعة تامة بالتفوق الإنجليزى - دونما جهد - على كل جنس آخر. ويقول داڤيد إدواردز فى كتابه «Christian England»: «فى النهاية، ساعدت الهيبة التى تحققت بواسطة هذه الانتصارات الأخلاقية الكبيرة ويلبرفورس ورفاقه الإنجيليين على فتح أفريقيا والهند أمام العمل التبشيرى المسيحى، الذى فُهم على أنه نوع آخر من التحرير. وكان عليهم أن يركزوا فى البداية على سيراليون، التى أسسوها سنة ١٧٧٨م مستعمرة على الشاطئ، لمساعدة العبيد العتقاء - الذين يواجهون الفقر والإملاق أو الجريمة فى انجلترا - على الاستقرار فى أفريقيا كفلاحين وتجار. وكانت المستعمرة الصغيرة حول فريتاون تعانى مصائب عديدة، وتعرضت للتدمير الفعلى على أيدى فرقة عسكرية فرنسية سنة ١٧٩٤م، لكى يعاد بناؤها على يد «زخارى ماكولى» الذى كان على استعداد لأن يمضى خمس سنوات هناك حاكمًا. وبقى الإنجيليون جامدين فى دعمهم حتى حدث أخيراً سنة ١٨٠٨م أن برهن العمل التبشيرى على أنه دائم وتم تأسيسه - ومع استخدام نهر عظيم هو ريو بونجاس - وفى السنة نفسها استولى التاج على المستعمرة. وتدريجيًا انتشرت القناعة بأن البيض يدينون بشىء ما «للقارة الداكنة» بعد كل صنوف الرعب التى تسببت فيها تجارة الرقيق، وأن الإنجيل المسيحى كان من بين البركات التى تخص الرجل الأبيض، والتى ينبغى أن يشارك فيها الأفريقيون على الرغم من العنف الذى غالبًا ما يواجههم، وعلى الرغم من المهانة التى خلفتها التجارة فى اللحم البشرى، وعلى الرغم من الأمراض القاتلة بما فيها الملاريا. وهذه البعثة التبشيرية قد زُرعت على التربة الأفريقية أثناء الحرب الكبرى ضد ناپوليون».

والإصرار على المثل العليا وراء الجهد الاستعمارى البريطانى فى أفريقيا، تم توضيحه على يد الدكتور «ديڤيد ليڤينجستون»، أعظم مستكشف وتبشيرى فى

زمانه، وهو الذى كان يشارك الإنجليين تمامًا احتقارهم للرق. فقد كان واحدًا من أشهر الرجال فى جيله، وهو مكتشف أعالى النيل، ومكتشف شلالات ڤيكتوريا وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم؛ إذ إنه كان رجلاً أحب أفريقيا والأفريقيين وكان محبوبًا فى المقابل. لقد كان يريد أن يدخل بأفريقيا مضمار الحضارة، ولكنه لم يكن يريد غزوها. ولم يكن ليريد لها أن تُستغل وتُستنزف، ومع هذا فإنه كان مسئولاً بصفة رئيسية عن حقيقية أن ذلك كان مصيرها. وقد أعلن فى خطاب له بجامعة كامبريدج سنة ١٨٥٧م: «إننى أتوسل إليكم لتوجيه انتباهكم إلى أفريقيا. إننى أعلم أننى فى غضون سنوات قليلة سوف أكون معزولا فى تلك البلاد المفتوحة الآن، فلا تتركوها لكى تغلق مرة أخرى. **إننى أعود إلى أفريقيا لكى أحاول أن أصنع ممرًا مفتوحًا للتجارة والمسيحية، فهل ستنجزون العمل الذى بدأته...**».

ورحلة ليڤينجستون الاستكشافية كانت مدفوعة بعاطفة لنشر الإنجيل وإنهاء تجارة الرقيق - وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا تربيته الكالڤينية الاسكتلندية الصارمة، فربما تكون كلمة «مُساقة» أقرب لوصف الرحلة. فقد اكتشف بسرعة، بغض النظر عن الإلغاء البريطانى للرق، أن الممارسة كانت منتشرة انتشارًا واسعًا، بل كانت مرضًا مستوطنًا فى الواقع، وقد أطلق عليها وصف «جرح العالم المفتوح». وكان تجار الرقيق عادة من العرب والسواحليين، وكانوا يجمعون حصيلتهم من العبيد باصطيادهم ببساطة(*). كانت بعثة اصطياد الرقيق تقوم بدورة خلال الريف الأفريقى بحيث تأسر من يصلح وتقتل من لا يصلح، ثم يساق العبيد الذين تم القبض عليهم باتجاه الشمال أو إلى ميناء مناسب على الساحل. وفى بعض

(*) هناك دراسات عديدة عن قيام السفن الأوروبية بغارات على سواحل أفريقيا الغربية لخطف العبيد وشحنهم على سفن أوروبية إلى أمريكا الشمالية للعمل فى المزارع لا سيما مزارع الجنوب. ولا يمكن تبرئة تجار الرقيق العرب من دورهم فى منطقة القرن الأفريقى والشواطئ الشرقية للقارة السوداء، ولكن الدور الأكبر لتجارة الرقيق بأعداد ضخمة كان من نصيب الحركة الاستعمارية الأوروبية والأمريكية - ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة «العبودية فى إفريقيا» تأليف عايدة العزب موسى، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٣ - المترجم.

الأحيان لاحظ «ليڤينجستون» أن الريف الذى كان يسافر خلاله مع الحمالين العاملين فى خدمته، كان خاليًا بشكل يثير الدهشة، ومن الواضح أنه قد تم إخلاؤه منذ وقت قريب - لأن الناس المحليين قد فرّوا للاختباء فى الغابات، مفترضين أنه لم يكن سوى واحد آخر من صائدى العبيد. أو تقوم قبيلة بالإغارة على أراضى قبيلة أخرى، وتأسر العبيد الذين تكون على استعداد لبيعهم إلى تجار الرقيق حينما يفدون فى المرة التالية. وقد اقتنع «ليڤينجستون» بأن الرق لم يكن مجرد لعنة على القارة، فقد كان أيضًا مهمًا من الناحية الاقتصادية باعتباره مصدراً للثروة والدخل. ومن ثم فإن القضاء على تجارة الرقيق يحتاج إلى اقتصاد بديل.

وقد تخيل أن الكلمات الثلاث الإنجليزية التى تبدأ بحرف C وهى التجارة والمسيحية والحضارة «Commerce, Christianity, Civilization»، يمكن أن تكون ذلك البديل. بيد أنه لم يكن بعيد النظر بالقدر الذى يكفى لأن يرى أن التجارة تعنى الاستكشاف والمتاجرة، التى تعنى السيطرة آجلاً أو عاجلاً، وكانت السيطرة بدورها تعنى الغزو. وفى النهاية كانت الطريقة الوحيدة لضمان القضاء على تجارة الرقيق هى جعلها تجارة غير قانونية وفرض القانون. وكان هذا يعنى الاستعمار.

ولكن حتى موت «ليڤينجستون» سنة ١٨٧٣م ظلت أفريقيا قارة مغلقة، القارة السوداء، أرض ملؤها صنوف من الرعب لا اسم له ووحوش خرافية. ولكن بدأت هناك فجأة وبصورة غامضة آنذاك ما يسمى «التدافع صوب أفريقيا» (وهى عبارة صُكّت سنة ١٨٨٤م على ما يبدو) عندما قررت كل الأمم الأوروبية الكبرى، فى الوقت نفسه تقريبًا، أن يكون لها نصيبها. ولكن أيّا منها لم تكن أكثر اقتناعًا من البريطانيين بمهمتهم الإلهية. وكما يصفها «توماس باكنهام»:

«فى بريطانيا أخذ التدافع صوب أفريقيا بهدوء فى البداية. ثم كان هناك استياء متزايد تجاه المتطفلين. إذ كانت بريطانيا رائدة الاستكشاف والتنصير فى أفريقيا الوسطى، وأحست بأن لها حق ملكية على معظم القارة. وعلاوة على ذلك، كانت هناك مصالح حيوية لبريطانيا فى مهب الخطر. وبوصفها القوة البحرية العظمى

الوحيدة، فقد كانت بحاجة إلى منع منافسيها من عرقلة طريق البواخر إلى الشرق عن طريق السويس ورأس الرجاء الصالح. وكان هذا يعنى العمل على كل من طرفى أفريقيا.

وكان فى بريطانيا البروتستانتية، حيث بدا أن الرب وشيطان الجشع قد وجدّا ليخدم كل منهما الآخر، إن كلمات ليڤينجستون ضربت أعمق الأوتار. إن الكلمات الثلاث التى تبدأ بحرف C هى التى كانت ستشفى أفريقيا».

ولكن أفريقيا لم تكن كافية، إذ كان الإنجليزيون يسلطون أنظارهم على الهند منذ زمن طويل. وحتى أواخر القرن الثامن عشر، حسبما يقول «ديڤيد إدواردز»، كان من المفترض أن الإنجليز كانوا فى الهند - ببساطة - لجمع المال. والكلمة الإنجليزية «loot» (ومعناها غنيمة أو سلب) تأتى من الهند. كان الوجود البريطانى فى الهند قد حقق بالفعل لحظات من المجد. ولكن هذا تغير عندما صار جمع المال فى شبه القارة أكثر صعوبة. وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، التى كانت بمثابة الحاكم النائب عن بريطانيا، حققت خسائر وبرهنت أنها غير قادرة على المنافسة، وحامت حولها شكوك كثيرة بالفساد (وهو الذى كان الرجال الإنجليز من أصحاب العقول السامية حتى ذلك الحين يظنون أنه نشاط قاصر على الأجانب). وقرب نهاية القرن الثامن عشر - إذ إن المحاكمة استغرقت عقدًا من الزمان - كان الحاكم العام على إقليم البنغال، وارين هاستنجز، قد اتهم أمام البرلمان بالفساد، وكان معارضه الرئيسى هو إدموند بوركى أشهر برلمانى فى زمانه. وقد فشل الادّعاء، ولكن فى أثناء المحاكمة تصاعد الاهتمام فى بريطانيا بمستويات الإدارة البريطانية فى الهند (التى تدار عن طريق شركة الهند الشرقية)، وهى الإدارة التى ظهرت بصورة رثة تمامًا، ومن ثم فإنه بنهاية القرن كان البريطانيون فى حالة تدعوهم إلى رفع النغمة الأخلاقية فى حضورهم ونفوذهم. وكانت سياسة هاستنجز تقوم على ألا يتدخل فى العادات والثقافات المحلية، على الرغم من أنه كان قد أتاح الفرصة لمن يريدون المقاييس الإنجليزية للعدالة. هذا الرفض المتعمد للرقى العقلى فى الهند سرعان ما واجه تحديًا من الإنجليين الذين

قادهم مرة أخرى «ويلبرفورس» الذى كان الرقى العقلى بالنسبة له يلى الإيمان بالرب. ويكتب «إدواردز»:

«إن الاعتقاد بأن الإنجليز كانوا فى الهند لممارسة وصاية وضعتها العناية الإلهية فى أيديهم بطريقة غامضة بدأ يسود الآن. وقد لقى تشجيعًا كبيرًا من الإنجيليين الذين توغلوا فى حكومة الهند الجديدة. وكان أكثر هؤلاء تأثيرًا هو «تشارلز جرانت»، الذى كان قد توجه إلى الهند سنة ١٧٦٧م ومرّ بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى فى غمرة أحزانه بسبب وفاة ابنتيه الشابتين. . وصار ابنه المدرب جيدًا روبرت حاكمًا على بومباى، والروح التى حكم بها السير روبرت جرانت الهنود تتضح فى كتابته ترنيمة عنوانها: «فلتعبدوا الملك المجيد فى الأعالى»، والمقطعان الأولان منها كما يلى:

فلتعبدوا الملك

المجيد فى الأعالى

ولتنشدوا بامتنان

بقوته وحبه

درعنا وحامينا

قديم الوجود

سرادقه سناء

ويطوقه الثناء

فلتحدثوا عن عظمته

وتغنوا برحمته

فثوبه الضياء

وعرشه الفضاء

وعربات غضبه

هى السحابات الرعدية الكثيفة

وممره مظلم

على أجنحة العاصفة

وليس هناك تسجيل لتأثير ذلك على السكان المحليين. وقد سار إداريون كبار آخرون على النهج نفسه؛ **فالحاكم العام اللورد «تيجنماوث» «لم يكن يخفى قناعاته الدينية» على حد قول إدواردز. وخليفته اللورد ويلسلى أعلن بوضوح أن انجلترا لها «وصاية مقدسة» تبرر ضم أو «إعلان الحماية» على جزء كبير من شبه القارة الهندية.** وفى الوقت نفسه كان التصميم البريطانى على إصلاح المجتمع الهندى والأخلاقيات الهندية قد تزايد؛ بسبب القصص المتداولة عن دعارة المعابد، والمركبة الضخمة التى تسمى چوجرنوت التى كان المؤمنون بالإله كريشنا يلقون بأنفسهم تحتها لتسحقهم، وأنشطة «الثوجيس ـ Thuggees» الذين كانوا يشنقون المسافرين قربانًا للإله «كالى»، وفوق هذا كله عادة «الساتى ـ Sati» المرعبة، أى الطقس الذى تحرق فيه الأرملة حية فى جنازة زوجها الراحل.

كانت هناك صرخة عندما رفضت شركة الهند الشرقية ـ التى كانت هى المسيطرة رسميًا ـ التدخل، على أساس أن هذا التدخل يمكن أن يؤثر على أرباحها. وليست بنا حاجة إلى القول: إن النزعات الإنسانية للإنجليين تشابكت بطريقة دقيقة مع رغبتهم فى نشر المسيحية الإنجيلية وإحساسهم بالتفوق والسمو على البشر الأدنى منهم. وهذا كله، فى زمن كانت انجلترا تنزلق فيه بعيدًا عن النزعة الدينية السائدة فى عصر الوصاية على العرش، إلى العصر الڤيكتورى الأكثر تطهرًا، والإنجيليون يتربعون فوق القمة فى خيلاء وغرور.

وحتى ذلك الحين، كان نشاط الإرساليات التبشيرية البروتستانتية فى الهند قد تُرك بشكل أساسى إلى اللوثريين الألمان، تشرف عليهم الجمعية الأنجليكانية لتحسين المعرفة الإنجليزية، كما كانت مرتبات القساوسة تدفع من شركة الهند

الشرقية . وفيما عدا هذا لم تكن الشركة ترى نفسها رأس معبر مسيحى إلى الهند الهندوسية، كما أن موظفيها لم يكونوا يريدون أن يعظهم أحد بشأن أخلاقياتهم وعاداتهم . وصارت العلاقات الجنسية غير المنتظمة مع البنات المحليات أمراً معتاداً؛ مما أدى على مر الأجيال إلى جمهرة متزايدة من الناس من أصول مختلطة عرقيّا، لم يكونوا يعتبرون هنوداً حقّا ولا إنجليزاً خالصين .

ولكن حينذاك اقتربت سنة ١٨١٣م، حينما حان وقت مراجعة ميثاق شركة الهند الشرقية؛ ورأى الإنجيليون بقيادة «ويلبرفورس» فرصتهم فى ذلك . ويستمر «إدواردز» فى سرد القصة :

«وإذا كان ذلك متوقعًا، قام أحد قساوسة الشركة، وهو كلاوديوس بوشانان، بتكريس نفسه للدعاية لصالح كل من العمل التبشيرى و «مؤسسة كنسية هندية» أكبر كثيراً لتحويل الإنجليز الذين ليس لهم رب، وعندما جاءت سنة ١٨١٣م اغتنم الإنجيليون الفرصة لضمان حق الدخول إلى الهند، ليس فقط للتجار الذين ليسوا أعضاء فى الشركة، وإنما أيضًا للأشخاص الذين يرغبون فى دخولها «بغرض تنوير الهنود وإصلاحهم» . . . ولكى يقود القساوسة الذين كانت شركة الهند الشرقية ما تزال تعينهم، ولممارسة نفوذ غيرمحدود على أية بعثات تبشيرية أخرى، كان لا بد من تعيين أسقف فى كلكتا ومعه ميزانية وافية قدرها خمسة آلاف جنيه استرلينى فى السنة، مع ثلاثة من المعاونين» .

وقد تم تعديل الميثاق نفسه لكى يعطى الوجود البريطانى فى الهند الغرض الأخلاقى السامى الذى اضطرت الشركة إلى الاعتراف به بإعلانها: «إنه واجب على بلادنا أن تحسّن مصالح وسعادة السكان الوطنيين فى الممتلكات البريطانية بالهند، ومثل هذه الوسائل ينبغى أن تكون مستخدمة بقصد تقديم المعرفة المفيدة والتحسن الدينى والأخلاقى لهم».

وأعلن ويلبرفورس وهو يخاطب مجلس العموم فى جدل حول الميثاق الجديد أن «المسرحية تفترض شخصيتها الحقيقية . . . عندما تتولى حماية أولئك الفقراء المحرومين الذين تنظر إليهم الفلسفة من عليائها بازدراء» . ووعد بأن النشاط

التبشيرى مستقبلاً فى الهند لن يحاول أن ينشر الإنجيل بالقوة. «الإجبار والمسيحية؟ لماذا يختلف هذان المصطلحان بالذات كل منهما مع الآخر؟ لأنه لا يمكن التوفيق بين الفكرتين. وفى لغة الإلهام نفسها، تمت تسمية المسيحية قانون الحرية».

هكذا كانت شخصية الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى تأسست عند بداية القرن الذى صعدت فيه وازدهرت بحيث وصلت القمة، على حين صارت الهند جوهرة التاج الإمبراطورى. وكان «الراج»، وهو الاسم الذى صارت الإدارة البريطانية فى العهد الڤيكتورى تُعرف به، له جاذبية إنجليزية خاصة. وكان هناك استياء، بل وكان هناك فى الواقع عصيان مسلح فى الجيش سنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨م عندما بدا أن الإصلاحات الغربية (وبعضها بوحى من المسيحية) قد باتت تشكل خطراً شاملاً على الثقافة الهندية. بيد أن العلاقة كانت لها جوانب إيجابية كثيرة من وجهة النظر الهندية. فقد كان المثقفون الهنود على نحو خاص مشدودين إلى دراسة القانون الإنجليزى. وحقيقة أن الإنجليز كانوا مسيحيين ـ اسميًا على الأقل ـ لم تؤد إلى الانتشار الواسع للديانة، ولكنها كانت تعنى بالفعل أن الإنجليز البروتستانت كانوا مجهزين جيداً للسيطرة على الحلبة فى كثير من النزاعات المختلفة بين القبائل والديانات فى الهند ـ الهندوس والبوذيين والمسلمين والسيخ واليهود واليانسيين والمسيحيين السوريان وغيرهم ـ وهى نزاعات كانت دائمًا حبلى باحتمالات العنف.

وعلى وجه الإجمال كان المسلمون يفضلون حكومة بريطانية للهند عن حكومة هندوسية، والعكس صحيح تمامًا. ومع هذا فإن الحياة فى الهند كانت تبدو وكأنها فقط تشجع فى الإنجليز أنفسهم إحساسًا بتفوقهم، وهو إحساس كان يظهر بين الحين والحين فى تجليات عنصرية مشبعة بالاحتقار والازدراء. وكان هذا وثيق الصلة بوعى طبقى متطرف كان يناسب تمامًا النظام الطبقى الهندوسى، وهو نظام كان ـ لأسباب لا علاقة لها بالعنصرية الأوروبية البيضاء ـ يضع أصحاب البشرة الفاتحة فوق قمة هيراركية دينية واجتماعية، على حين يضع ذوى البشرة الداكنة فى قاعها.

والانحيازات التى تسمى الآن عنصرية كان لا بد وأن تبدو لأولئك الذين تمسكوا بها مجرد جزء صحيح من الوعى الطبقى. وكان لا بد للإنجليز فى ذلك الزمان من أن يعتبروا الجنس نظامًا يحل محل الطبقة، وكلاهما لا بد أن يكون محكومًا بالافتراضات عن العرق والدم. وقد أعطى هذا موضوعية ودوامًا للتدرج الطبقى - وكانت تلك صيغة مُعدّلة من القدرية. فإن يكن المرء «طيب المولد» فهذا يعنى أن يكون مباركًا فى الحياة بشخصية أخلاقية يمكن أن يعترف بها الآخرون ممن نعموا بـ «حسن المولد». ولم يكن الفقراء فقراءً فقط؛ لأن الرب أراد أن تكون لهم هذه المكانة: وإنما ولدوا لكى يكونوا فقراءً، ولم يولدوا لكى يكونوا من الطبقة الراقية. لقد كان ذلك فى دمائهم. (ليس هناك بطبيعة الحال أساس علمى لهذا؛ لأن دماء الطبقة الراقية هى دماء الطبقة الدنيا نفسها). ويحفل الأدب الڤيكتورى بأمثلة حيث يتفوق المولد الحسن على النقائض الاجتماعية، وأشهرها رواية «أوليڤر تويست» لـ «تشارلز ديكنز». وحتى فى القرن الواحد والعشرين، فإن عدم حب الطبقة العاملة الإنجليزية لأولئك الذين «يتعالون على مكانتهم» لم يختف تمامًا؛ إذ إن الإنجليز ما يزالون يمايزون فيما بين أنفسهم على أساس اللهجة، مثلاً، التى هى أكثر ما ينبئ عن العلامات المميزة للطبقة بطرق عديدة أقوى من الجنس كثيرًا. ومفهوم «الدم» إلى جانب مفهوم «الأصل» قد برهنا على أنهما راسخان بدرجة مدهشة، على الرغم من حقيقة أن أى اقتراح بشأن الأساس الحقيقى لهما قد صار منذ زمن طويل مهجوراً.

والجماعات المغتربة تكون محافظة بالضرورة. وكان الإنجليز تحت حكم الراج رجعيين بدرجة خطيرة، كما أن سلوكهم تجاه السكان المحليين - السخرية التى كانوا يكنونها تجاه الهنود «الذين حاولوا أن يكونوا إنجليزًا» كانت لا تصدق - تسبب فى درجة من الاستياء بحيث إنها فى النهاية أطاحت بالإدارة الإنجليزية (الراج) تمامًا. وأحد الأفعال الطائشة الأخيرة - ولكنها ليست الأكثر طيشًا، للغطرسة التى مورست على الجمهور الهندى الذى كان حنقه وجموحه يتصاعدان - كان ذلك الذى أعقب مذبحة أرميستار سنة ١٩١٩م، وقد يصلح تلخيصًا لمواقف البريطانيين طوال عصر الراج، الذى كان قد تحجر آنذاك.

إذ إن اضطرابًا وطنيًا خطيراً فى أرميستار ـ وهى مدينة فى إقليم البنجاب ـ استمر عدة أيام عندما قام الجنرال «ماچور داير»، القائد البريطانى المحلى، بإصدار الأوامر إلى قواته بفتح النار على جمهور كبير من المتظاهرين، فقتلوا ما بين خمسمائة وألف شخص، وكان تكتيكه بغرض إظهار الصرامة البريطانية تجاه الهنود المهيجين؛ والواقع أن أساليبه تلك أظهرت الاحتقار البريطانى للهنود بشكل عام. وفى الأحداث التى سبقت هذه المجزرة، كانت مبشرة مسيحية، اسمها «مارشيا شيروود»، كان قد تم توقيفها من جانب جماعة من الغوغاء يصيحون: «اقتلوها، إنها إنجليزية» وأسقطوها من على دراجتها. وعلى الرغم من أن صيحة واحدة من الحشد انطلقت «لا، إنها واحدة من شعب الله المختار تعلم أطفالنا وتؤدى عمل الرب»، فإن الهجمات عليها ازدادت جنونًا بحيث باتت حياتها معرضة للهلاك. وفى نهاية الأمر تم إنقاذها على أيدى الهنود الأصدقاء، وتم إخفاؤها عن الغوغاء، ونقلها بعد الظلام إلى مكان آمن.

وإذ سمع الجنرال «داير» بهذه الإهانة التى لحقت بامرأة إنجليزية بريئة، أعلن أن الحارة التى حدث فيها الهجوم ستكون أرضًا مقدسة. ولكى يفرض على الجماهير الهندية أهمية احترام النساء البيض أمر الحراس البريطانيين ـ والحراب مثبتة فى بنادقهم ـ أن يقوموا بدوريات فى الحارة التى وقع فيها الهجوم، ثم أعلن أن أى هندى يريد أن يمر من الحارة ـ التى كان طولها حوالى مائة وخمسين ياردة ـ عليه أن يزحف على بطنه فى التراب (وكانت قذرة جداً مع الكميات الكبيرة من مخلفات الناس). هذه المهانة لحقت بمئات من الهنود الأبرياء، وبينهم عدد ممن ساعدوا على إنقاذ حياة الآنسة «شيروود». وتمت إقامة تصليبة خشبية فى المنتصف، وحوكم ستة من الشباب ـ ربما كانوا وربما لم يكونوا من الغوغاء الذين هاجموا المرأة ـ وتم جلدهم علنًا، وصارت حكاية «حارة الزحف» شائعة فى كل أنحاء الهند وجميع أرجاء الدنيا، وكان بسببها وكذلك بسبب إطلاق النار بشكل متهور على المتظاهرين أن أعفى «داير» من منصبه بأوامر من حكومة لندن. وكانت الجمهرة الإنجليزية فى الهند متضامنة فى تأييدها له واستشاطوا غضبًا لطرده، فقد كانوا يظنون أن فكرة «حارة الزحف» فكرة صائبة بشكل فريد.

هكذا سخر الراج فى النهاية من حلم ويلبرفورس الإنجيلى بـ «هند» مسيحية إنسانية، وربما كان إخفاق هذا الحلم راجعًا إلى أحد تفاصيل حياة ويلبرفورس نفسه لم يمارس بشأنها النقد الذاتى بشكل كاف - وهو إيمانه بالامتياز والثروة والحسب والنسب - باعتبارها جوانب مقدرة من الرب فى البناء الاجتماعى والطبقى الإنجليزى. ومثلها مثل أى شىء، أدت هذه الرذائل الإنجليزية الكبرى إلى سقوط الراج، مثلما أدت بالفعل إلى تحويل السكان المحليين الوطنيين ضد المستوطنين البيض وحكامهم الاستعماريين فى جميع أنحاء أفريقيا وفى كل مكان آخر. وربما يرضى شعب ذو كبرياء بأن يُحكم، ولكنه لا يرضى أن يكون الثمن الإهانة والتحقير.

ومع هذا فإن الهند جنت الكثير من الوجود البريطانى، وراقت لها اللغة الإنجليزية، وحققت الديموقراطية البرلمانية، وأعجبتها لعبة الكريكيت، كما حققت حكم القانون الذى استمر وازدهر، على الرغم من الصعوبات الهائلة فى بعض الأحيان. وسيكون من المستحيل تحديد «هوية هندية» لم تأخذ فى اعتبارها تمامًا هذا الميراث البريطانى - ولا سيما اللغة الإنجليزية أساسًا - بما فى ذلك التجربة التكوينية المتمثلة فى خلع ذلك النير الاستعمارى فى خضم معركة أخلاقية أساسًا، كسبها الجانب الذى كانت لديه الأسلحة الأفضل. وقد تمت إلى حد كبير دونما إراقة الدماء (على الرغم من أن دماء كثيرة أريقت فى الصراع المرير بين المسلمين والهندوس فى زمن الاستقلال). وإلى حد كبير تخلوا عن (أو كانوا مجبرين على التخلى عن) الملامح الأكثر بربرية فى المجتمع الهندوسى التى كانت جرس إنذار للڤيكتوريين الأوائل، مثل حرق الأرامل (الساتى). وعلى الرغم من أن المسيحية كديانة رسمية لم تحقق سوى نجاح قليل، فإن كثيرًا من القيم التى استمدها الاستعماريون من المسيحية وطبقوها فى الهند تم استيعابها بنجاح. وكانت المدارس المسيحية ناجحة بشكل خاص فى أوساط الطبقات العليا من الهندوس. وربما كان ويلبرفورس أكثر نجاحًا مما كان يبدو فى البداية؛ إذ إنه أصلح السلوك الهندى. كما أن الديانة الهندوسية - فى الوقت نفسه - قد برهنت مرة أخرى على عبقريتها فى التعلم من الاتصال مع الثقافات والنظم الأخرى، محافظة على أصولها الجوهرية على حين توائم ممارساتها.

وكان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار. ففى الشئون الدولية كان لهذا جانبان؛ فقد كانت حالة «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» أو حالة «إن من يتحدى انجلترا إنما يتحدى الرب». وكانت الحروب الناپوليونية مثالاً صارخًا على الحالة الثانية؛ إذ إن انجلترا وجدت نفسها الأمة القائدة التى لديها نموذج ملكى وأرستقراطى للمجتمع، وهو نموذج رفضه الفرنسيون باعتبار النظام القديم. وكان هدف ناپوليون أن ينشر الأفكار الثورية الفرنسية فى جميع أمم أوروپا من خلال النفوذ السياسى، ومن خلال الإرهاب العسكرى ومن خلال الغزو. ولأن الاعتقاد كان سائدًا بأن العناية الإلهية حاسمة فى مثل هذه الأمور، فإنه كان ينبغى لبريطانيا أن يكون الرب فى جانبها لكى تتمكن من هزيمة ناپوليون. وقد أحست انجلترا أن عليها واجبًا يقضى بأن تستخدم قوتها العسكرية فى الدفاع عن شكل من الحكومة يعتبره الإنجليز شكلاً قدّره الرب. هذه هى الحجة التى أشرنا إليها من قبل والتى استخدمها أسقف «دورهام» للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت تستخدم بانتظام فى سياقات أخرى.

والمبدأ المقابل «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» ـ كان أحد العوامل التى تسببت فى نشوب حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) التى وضعت بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية ضد روسيا من أجل السيطرة على موانئ البحر الأسود. وكانت المسألة الرئيسية هى الرغبة الروسية فى أن تصبح حامية الحقوق الدينية للمسيحيين، والأرثوذكس خاصة، من رعايا الدولة العثمانية (المسلمة). وكان هذا يعنى أن روسيا ستكون القوة المهيمنة فى الأراضى المقدسة، وسيكون بمقدورها أن تسيطر على الأماكن المقدسة، والمواقع والمزارات التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وليس فقط تلك الموجودة فى القدس، وهو ما كان بمثابة إنذار للبريطانيين البروتستانت.

ولأن روسيا كانت تعارض المصالح البريطانية على اتساع العالم، وأيضًا لأن الفكرة الشائعة عنها أنها كانت متخلفة وخاضعة لحكم مستبد، كانت هى البطة

السوداء المفضلة لدى الصحافة البريطانية. إذ كان التهديد الروسى بالسيطرة على فلسطين، أو على الأقل تلك الأجزاء والأماكن التى تخص المسيحيين فى فلسطين، يُعتبر تهديداً مباشراً للمصالح البريطانية، التى كانت بداهة بالنسبة للرجل الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر، هى مصالح الرب. ومن الغريب أنهم لم يهتموا كثيراً بأن بلداً مسلمًا يحكم فلسطين، كما أن فرنسا، برغم كونها كاثوليكية، كانت مقبولة حارسة للأماكن المقدسة أكثر من روسيا (ولم يكن هذا يعنى أن الإنجليز قد صاروا متساهلين مع المذهب الكاثوليكى، فقد كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك). ولكن البريطانيين كانوا يتوددون بلطف إلى الحكّام العثمانيين، واضعين نصب أعينهم الاستيلاء تدريجيًا على فلسطين (كما كانوا قد استولوا على مصر تدريجيًا). ولم تكن روسيا جزءًا فى خطة مثل هذه.

ثم حدث فى زمن أقرب إلى العصر الحالى، أن كان الصراع غالبًا ما ينشب بين الطائفتين المسيحيتين اللتين اعتبرتا أنفسهما مسئولتين عن حماية الأماكن المقدسة - الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك. واندلعت منازعات كبيرة، على حين كانت المجادلات بشن الأحقية والأسبقية تتحول إلى العنف أحيانًا. وبعض الأماكن ذات القداسة فى الأرض المقدسة مثل الضريح المقدس الذى يقال إن يسوع قد دُفن فيه ما بين الصلب والقيامة كانت تحت إدارة مشتركة، والبعض الآخر مثل كنيسة المهد كانت أرثوذكسية أساسًا، وبعضها كانت تحت السيطرة الكاثوليكية - وكان الرهبان الفرنسيسكان يعينون من قبل البابا. (ومع نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل الخرائط البصرية التى أعدها الجنرال جوردون، صار للپروتستانت واحد على الأقل من الأماكن المقدسة التى تخصهم، وهى ما تسمى «مقبرة الحديقة» التى زعم «جوردون» أنه اكتشفها بملاحظة أن أحد الخطوط الكنتورية على خريطة القدس كان يبدو وكأنه على شكل جمجمة. وبحيلة غريبة، صار الجيش البريطانى هو المسئول رسميًا عن وضع خرائط فلسطين تحت الحكم التركى. وإذ كانت تبدو مقبرة أشبه بالكتاب المصور منها بالضريح الواضح، كانت تحظى بشعبية خاصة لدى السائحين الأمريكيين. كان «جوردون» پروتستانتيًا مخلصًا، وكان نجاحه فى الكشف عن «المقبرة الحقيقية»، بالنسبة للإنجيليين فى العصر

الفيكتورى، هو الدليل الذى كانوا بحاجة إليه على موافقة الرب عليه وعلى الأمة البريطانية).

وهكذا فإن السماح للروس بأن يتولوا مسئولية الإشراف على فلسطين كان سيشكل تهديداً خطيراً على الرهبان الفرنسيسكان، الذين كان البريطانيون يفضلونهم فى هذه المناسبة. وحسبما تقول بربارا توخمان فى كتابها «Bible and Sword» : «كان النزاع على الأماكن المقدسة الذى تسبب فى حرب القرم من أكثر الأسباب سخافة فى نشوب حرب كبرى على مر التاريخ». ولكن حسبما توضح هى أيضًا، فإنه يدخل ضمن السياق الأكبر للخطط البريطانية طويلة المدى فى فلسطين لكى تساعد على ترحيل اليهود إليها، وهى رغبة بلغت ذروتها فى إعلان بلفور ١٩١٧م والانتداب البريطانى بعد ذلك بوقت غير طويل.

كان وريث التراث الإنجيلى لـ «وليام ويلبرفورس» هو اللورد «شافتسبرى»، المعروف فى الجزء الأول من حياته باسم اللورد «آشلى». وكان واحداً من أكثر السياسيين تأثيراً فى زمانه ـ وقيل إن الأساقفة كانوا غالبًا ما يعينون بناء على مجرد توصية شخصية منه إلى رئيس الوزراء. وشن حملات بلا كلل لمعارضة الحركة الأنجلو- كاثوليكية فى كنيسة انجلترا، بل إنه جعل البرلمان يجرّم بعض الممارسات الطقوسية مثل رسم علامة الصليب، والتى كانت مرتبطة حتى ذلك الحين بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكانت قناعته بأن الإنجليز هم شعب الله المختار راسخة قوية، كما أنه تأثر بالتصاعد فى التوقعات الألفية ـ بين الإنجيليين الإنجليز فى الجزء الأخير من العصر الفيكتورى، وهى مزيج حاذق من نبوءات مختلفة مأخوذة من سفر دانيال ورؤيا يوحنا وغيرهما، وكان الشائع على نطاق واسع أنها تحدد شروطًا بعينها ستكون ضرورية قبل حدوث الحادثة الألفية ـ أى عودة المسيح.

ويرجع اهتمام البروتستانت بتنصير اليهود إلى القرن السابع عشر، حينما قابل المنفيون البيوريتان الإنجليز اليهود فى أمستردام، وتأثروا بإخلاصهم فى أسلوب حياتهم لتعاليم العهد القديم. وتحت حكم «أوليفر كرومويل» تم رفع المرسوم

الذى صدر فى العصور الوسطى بمنع اليهود من دخول انجلترا، وشوهدت أول مجموعة صغيرة من اليهود فى لندن. وحتى فى ذلك الوقت، كان أحد الأسباب فى تشجيع اليهود على القدوم إلى انجلترا هو تنصيرهم، وذلك تلبية لأحد الشروط الضرورية للمجىء الثانى المسيح.

وكان «شافتسبرى» يشارك فى هذه الرغبة، بل إنه كان يلبس خاتمًا ذهبيًا منقوشًا عليه كلمات تقول: «صلوا من أجل سلام القدس». ولكنه كان يرى الأمرين ـ عودة اليهود إلى فلسطين، وتحويل اليهود إلى المسيحية ـ يحدثان سويًا. ومن ثم فإن رغبته المضطرمة فى أن تفرض السياسة الخارجية البريطانية عودة اليهود، ودعمه القوى أيضًا لفكرة إقامة أسقفية فى القدس، حيث يمكن لكنيسة انجلترا أن تقوم بتنصير اليهود. كان هذا هو الامتداد المنطقى لجمعية «نشر المسيحية بين اليهود» التى أقامها الإنجيليون فى لندن، والتى يرجع تاريخها إلى زمن «ويلبرفورس».

وتقول «بربارا توخمان» عنه: «مثل كل الرجال الذين تستحوذ عليهم عقيدة مكثفة، أحس اللورد شافتسبرى بلمسة الرب القوى على كتفيه، بأنها توصية بأن يعمل هو شخصيًا من أجل «الحادث العظيم». وبصحبة ڤيكتوريين كبار آخرين لم يساوره الشك أبدًا فى أن الأدوات البشرية يمكن أن تحقق الأغراض الإلهية...

فقد كان الشك الذى ميّز القرن الثامن عشر قد أفسح الطريق أمام التدين الڤيكتورى، وعادت عقلانية القرن الثامن عشر تستسلم من جديد أمام الوحى. وكضرورة لازمة لعودة النزعة العبرانية، نجد اللورد «شافتسبرى» يؤيد إقامة إسرائيل... وعندما يرجع المسيحيون إلى سلطة العهد القديم كانوا يجدون أنه يتنبأ بعودة شعبه إلى القدس، ويجدون أن من الواجب عليهم المساعدة فى تحقيق هذه النبوءة».

والواقع أن العهد القديم، والعهد الجديد يتنبآن بهذا. وهكذا، فإن نقطة كون انجلترا الشعب المختار لم تكن تعنى فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى جعلتهم يشعرون أن من واجبهم أن يشركوا فيها من هم أقل حظًا؛ وإنما كانت أيضًا بالنسبة للإنجيليين الذين كان لهم نفوذهم فى السياسات الإنجليزية، أمرًا لا يقل عن

تحقيق نهاية الزمان وبداية حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص فى الأيّام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن فى لندن بالتأكيد.

ترى ماذا كانت تلك النبوءات التى أثرت على الأحداث بمثل هذه القوة؟ إذا ما وضعنا فى اعتبارنا أنها كانت أدوات استخدمت فى إعادة اليهود إلى أرض تسمى الآن إسرائيل من جديد، فإن هذه النبوءات تستحق دراسة أكثر تأنيًا ـ حتى على الرغم من أن البحوث والدراسات المسيحية الحديثة ـ خارج نطاق دوائر الأصولية الأمريكية الضيقة التى تستوعب ذاتها.

وكل من العهد القديم والعهد الجديد غنيان فى المادة التى تتنبأ بنهاية العالم، ومن ثم، فإن هناك مزيجًا لا يستهلك من نصوص النبوءات التى يمكن استحضارها سويا للتنبؤ بشىء فى المستقبل. ولا بد أن قرّاء الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر كانوا سيستطيعون أن يميزوا هذه النصوص على الأقل، حتى ولو لم يفهموها تمامًا:

«وفى أيّام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدًا وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهى تثبت إلى الأبد» (دانيال ٢ : ٤٤).

«والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسى العلى. ملكوته ملكوت أبدى وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون» (دانيال ٧ : ٢٧).

«وفى ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبنى شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفى ذلك الوقت ينجى شعبك كل من يوجد مكتوبًا فى السفر. وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور.

أما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد» (دانيال ١٢ : ١ـ٤).

«ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتى المنتهى، فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس. ليفهم القارئ» (إنجيل متى ٢٤: ١٤-١٥).

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر. لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء. إن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١١: ٢٥-٢٧).

«وتكون علامات فى الشمس والقمر والنجوم. وعلى الأرض كرب أمم بحيرة. البحر والأمواج تضج. والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة؛ لأن قوات السموات تتزعزع. وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا فى سحابة بقوة ومجد كثير. ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رءوسكم لأن نجاتكم تقترب» (إنجيل لوقا ٢١: ٢٥-٢٨).

«ورأيت ملاكًا نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه فى الهاوية وأغلق عليه وختم عليه حتى لا يُضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحلّ زمانًا يسيرًا.

ورأيت عروشًا فجلسوا عليها وأعطوا حكمًا ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة» (رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠: ١-٤).

[وهذا هو مصدر كلمة «الألفية» التى لم تكن تشير أصلاً إلى تواريخ بأرقام ذات ثلاثة أصفار، ولكن إلى حكم الألف سنة للمسيح بعد مجيئه الثانى].

وهكذا حشد «شافتسبرى» التأييد لعودة اليهود إلى إسرائيل. وتلخص «بربارا

توخمان» طموحاته على أنها كانت من أجل «إسرائيل أنجليكانية تعيد بناءها انجلترا البروتستانتية، وفى ضربة واحدة تزعج البابوية وتحقق النبوءة، وتضمن خلاص البشرية».

وليس هذا إيحاء بأن كل سكان انجلترا كانوا أسرى هذه الفكرة. فالواقع أن شافتسبرى وتابعيه الإنجيليين كان يُنظر إليهم، فى الدوائر الفكرية فى لندن بالتأكيد، على أنهم رجعيون معادون للتقدم بهم مس من الفانتازيا. فمن بين اهتمامات شافتسبرى الإنسانية العديدة كان اهتمامه بإصلاح القوانين الخاصة بالأمراض العقلية، التى كانت تسمى الجنون آنذاك. وكما هو الحال فى مجالات أخرى عديدة للإصلاح استحوذت على اهتمامه العاطفى، نجح فى أن يضفى لمسة إنسانية على التشريع القاسى الأخرق الذى كان يعامل المرضى عقليًا باعتبارهم موضوعات للاحتقار أو للسخرية. وباعتباره الرائد فى هذا المجال، كان رئيس «لجنة الجنون» الرسمية، التى كان مهمتها أن تحدد مَن المجنون ومن السليم عقليًا. وفى أحد الأيام جاءت أمامه حالة امرأة، قيل عنها لإثبات جنونها: إنها تؤيد «جمعية تنصير اليهود»، وردّ عليهم «شافتسبرى»: «هل أنتم مدركون أننى رئيس هذه الجمعية؟». ولا بد أنه كان يعرف أن الإنجيليين الذين كان هو رئيسهم كانوا يعتبرون بشكل عام عصبة سخيفة من المتحمسين. إذ كانوا هم، على أية حال، الذين أعطوا العصر الفيكتورى سمعته فى الحشمة والتطهر، وهم الذين ألهبوا غضب المعادين للدين من أمثال «توماس هكسلى».

وقد عاشت أفكار شافتسبرى عن عودة اليهود بعد موته. وتصف بربارا توخمان فى كتاب «Bible and Sword» كيف أن هذه الأفكار كانت فى خلفية السياسة الخارجية البريطانية فى الشرق الأوسط على مدى جيل، بينما كانت بريطانيا تتلوى وتلتف بطريقتها التقليدية ؛ لكى تستخرج شيئًا لنفسها من الصراعات الإقليمية، ولا سيما بين الروس والإمبراطورية العثمانية ولكن مع وجود ألمانيا وفرنسا أيضًا كلاعبين مهمين. وقد كان واضحًا أن نهاية السيطرة العثمانية على مناطق خارج تركيا نفسها ليست بعيدة: فقد كان ينظر إليها بالفعل على أنها «رجل أوروبا

المريض». وظهر عدم الاستقرار هذا فرصة، ولكن فرصة لماذا؟ العودة اليهودية إلى فلسطين لم تكن هى النتيجة المحتملة آنذاك. وكان واضحًا أن اليهود أنفسهم لم يكونوا مهتمين بهذا: واليهود البريطانيون على وجه الخصوص لم يعجبهم إعلان بلفور سنة ١٩١٧م وحاولوا إيقافه.

ولكن مجموعة من العوامل كانت قائمة بحيث تجعل منه أمرًا معقولاً، وفيها تأييد شافتسبرى، والوقت الذى أمضاه فى إدارة السياسة الخارجية البريطانية بصفته وزير الخارجية فى حكومة دزرائيلى، وهو ما كان عاملاً ذا أهمية كبرى؛ لأنه فى تلك الأثناء كانت معاداة السامية تتصاعد بشكل واضح، ليست فقط بما صحبها من فتن وقلاقل فى روسيا والقلق والاضطراب فى پولندا، حيث كانت الجماعات اليهودية المحافظة تعيش حياة تقليدية تكاد تكون قبلية، ولكن أيضًا فى فرنسا وألمانيا حيث كانت الأفكار اليهودية الأكثر تحررًا عن الذوبان فى المجتمعات كحل لمعاداة السامية موضع اختبار ـ وتعانى الفشل. وهكذا، كانت قطاعات كبيرة من الرأى فى أوروپا ـ فالمعادون للسامية فى الكنيسة والدولة، واليهود الليبراليون والتقليديون، والمسيحيون الإنجيليون المتعاطفون مع اليهود، والدبلوماسيون البريطانيون المتطلعون إلى إبعاد روسيا وألمانيا ـ قد صارت مدركة «للمشكلة اليهودية» بطريقة لم تحدث من قبل.

وفى الوقت نفسه فإن الرأى الدينى اليهودى الذى كان حتى ذلك الحين يأخذ بوجهة النظر القائلة بأن أية عودة إلى الأرض الموعودة إنما هى بيد الرب وحده، بدأ ينفتح على إمكانية تناول النبوءة الخلاصية على أساس مبدأ «افعلها بنفسك». فربما أمكن المساعدة فى تحديد المصير اليهودى بقدر بسيط من التنظيم. ولهذا تم إقناع الحكومة العثمانية بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ربما تكون فى صالح الاقتصاد المحلى. ومن كل هذه العوامل، بالإضافة إلى حلم سياسى من لدنهم، بنى مؤسسو الصهيونية حركة سياسية كانت تهدف من ناحية إلى تنظيم ورعاية الاستيطان اليهودى فى فلسطين (عن طريق شراء الأراضى إلى حد كبير)، ومن ناحية أخرى، التطلع إلى بناء وطن يهودى. وعند هذه النقطة كانت الصهيونية

حركة علمانية، وكان ذلك راجعًا بدرجة كبيرة إلى أن الرأى الدينى اليهودى كان ما زال يرى «الانتظار اعتمادًا على العناية الإلهية». ولذلك لم يكن هناك هدف أيديولوچى واضح للجمع بين الشعب اليهودى المختار والأرض الموعودة لليهود سوى من جانب الجيل التالى لـ «شافتسبرى» من الإنجيليين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا فى المؤسسة البريطانية. فقد كانت لهم أچندتهم الخاصة، التى لم تكن يهودية بالمرة بحفز المجىء الثانى للمسيح عن طريق إعادة اليهود إلى إسرائيل وتحويلهم إلى المسيحية. وكانت تلك أچندة لشعب پروتستانتى إنجليزى مختار، ولم تكن لشعب يهودى.

بيد أن الإنجليز لم يكونوا وحدهم؛ إذ إن الچنرال «چان سموتس»، على الرغم من أنه حارب إلى جانب البوير ضد البريطانيين فى جنوب أفريقيا، قد دُعى إلى دمج الإسهامات الإمبراطورية وإسهامات الكومنولث فى المجهود الحربى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى، بل إنه صار عضوًا فى وزارة الحرب الداخلية المصغرة برئاسة لويد چورچ، كان يوجّه الحملة. ومن ثم كان له نفوذ عظيم على القرارات التى تؤثر على السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط، وفى مرحلة ما، دُعى إلى قيادة القوات البريطانية فى المنطقة.

كانت السياسة الوطنية للبوير قائمة على أساس المبادئ الكالڤينية الصارمة، وكانت لها صيغتها الخاصة من أسطورة الشعب المختار. ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر انطلق البوير فى مسيرتهم العظمى على الأقدام عبر مئات الأميال فى بلاد ليست لها خارطة ليهربوا من البريطانيين، **وعندئذ وفيما بعد رأوا أنفسهم مثل بنى إسرائيل القدماء الذين قادهم موسى هربًا من ظلم فرعون (أى البريطانيين) الذين كانوا محاصرين بالكنعانيين (الأهالى السود) من كل الجوانب حتى وصلوا إلى الأرض الموعودة (الترنسفال).**

ويقرر «ديڤيد فرومكين» فى كتابه «A peace to End All Peace»:

«وباعتباره من البوير العارفين بالكتاب المقدس، أيد «سموتس» بقوة الفكرة الصهيونية حينما أثيرت فى الوزارة. وحسبما أوضح هو فيما بعد، كان الناس فى

جنوب أفريقيا ولا سيما السكان الهولنديون الأقدم قد تربوا بشكل يكاد يكون تامًا على التراث اليهودى. وكان العهد القديم.. قد صار هو العمود الفقرى للثقافة الهولندية هنا فى جنوب أفريقيا». فهو مثل لويد چورچ قد تربى على الاعتقاد بأنه «سوف يأتى اليوم الذى تتحقق فيه كلمات الأنبياء وستعود إسرائيل إلى أرضها». وكان يوافق لويد چورچ تمامًا على أن الوطن اليهودى يجب تأسيسه فى فلسطين تحت الرعاية البريطانية».

هناك علامتان فاصلتان أمامنا؛ وعد بلفور فى نهاية سنة ١٩١٧م، والذى وعد بالتأييد البريطانى لإقامة وطن يهودى، وثانيتهما الانتصار العسكرى البريطانى على الجيش التركى تحت قيادة الچنرال «اللنبى» سنة ١٩١٨م، وهو الذى وضع فلسطين تحت السيطرة العسكرية البريطانية، ومن ثم أعطى البريطانيين الفرصة التى لم تكن فى الحسبان لتضع إعلان بلفور موضع التنفيذ. وكان للإعلان آباءٌ كثرٌ ـ فحتى الرئيس الأمريكى «وودرو ويلسون» استشاره «سموتس» فى مسودة الإعلان ـ ولكن الرجل الذى حمل اسمه وحده كان وزير الخارجية البريطانى (ورئيس الوزراء السابق) فى الحكومة الائتلافية زمن الحرب التى رأسها «لويد چورچ». وتقول بربارا توخمان عن دوره:

«فى بلفور كان الدافع من الكتاب المقدس أكثر من كونه إمپرياليًا. وإذا كان يمكن القول بأن ثقافة انجلترا المستمدة من الكتاب المقدس لها أى معنى فى تخليص انجلترا لفلسطين من حكم الإسلام، فإن هذه الثقافة يمكن تلخيصها فى بلفور. وعلى الرغم من أنه كان عكس اللورد شافتسبرى، ولم يكن متحمسًا وإنما شكاكًا، ولم يكن متحمسًا دينيًا ولكنه كان متشائمًا فلسفيًا، ومع هذا فإنه كان متشربًا بقوة، مثل الإنجيليين والپيوريتان، لعبرانية الكتاب المقدس. شعر بلفور الذى كان منغمسًا فى الكتاب المقدس منذ الطفولة، باهتمام خاص بـ «أهل الكتاب». وحسبما تقول ابنة أخته ورفيقته وكاتبة سيرته، مسز دوجدّال، كان ذلك اهتمامًا على مدى الحياة يرجع بأصوله إلى تدريب أمه له على العهد القديم ونشأته الاسكتلندية. وعندما شب عن الطوق نما أيضًا إعجابه الفكرى بجوانب معينة من الفلسفة والثقافة

اليهودية وبدت له مشكلة اليهود فى العالم الحديث ذات أهمية بالغة. وكان دائمًا ما يتحدث عن هذا بشغف، وأنا أتذكر فى الطفولة أننى تشربت منه فكرة أن الديانة المسيحية والحضارة المسيحية تدين لليهودية بدين لا يقدر، وتم رد الدين لها بشكل سيئ وعلى نحو يدعو للخجل».

ولم تكن دوافعه ألفية بالتالى؛ إذ إنه لم يكن يفكر فى القدوم الثانى للمسيح، وإنما كان يسدد دينًا فحسب. كما أن إعلانه (وعد بلفور) لم يكن جهدًا للتخفيف من نقص الأسيتون و«حاييم وايزمان»، الزعيم الصهيونى الذى كان أيضًا باحثًا كيميائيًا بارزًا (حسبما اقترح لويد چورچ فى مذكراته). كما أن ذلك لم يكن فى الحقيقة زلفى إلى الرأى العام اليهودى الأمريكى، الذى كان فى ذلك الوقت معاديًا للمشروع الصهيونى برمته. وبالنسبة لـ «بربارا توخمان» كان الدافع الأكثر ترجيحًا على الجانب البريطانى كان يقترب من القدس. وكانت بريطانيا فى حاجة إلى قصة مقنعة فيما يتعلق بما سوف تفعله بالأرض المقدسة التى كانت على وشك أن تغزوها (أو تحررها):

«إعلان أن بريطانيا سوف تدخل فلسطين كوصية من أجل أصحابها الذين ذكرهم العهد القديم، سوف يحقق هذا الغرض بشكل يدعو إلى الإعجاب. هذه الحركة، وهى أبعد ما تكون عن الزيف والسخرية، كانت أساسية للضمير البريطانى. إذ لم يكن هناك أى تقدم فى مسيرة بريطانيا الإمبراطورية دونما قضية أخلاقية، حتى ولو كانت الذريعة مجرد اغتيال مبشر أو إهانة وجّهَهَا أحد السكان المحليين إلى ممثل التاج. كما كانت هناك ضرورة أكبر لقضية أخلاقية عندما كان الأمر يتعلق بالأرض المقدسة، التى كانت من بين كل الأماكن على الأرض هى التى ترتبط بأثمن الروابط وأغلاها فى ذهن الناس. إن غزو فلسطين سوف يكون الأكثر دقة وخروجًا على العادة بين الإنجازات الإمبراطورية، وحسبما أشار «اللنبى» حينما ترجّل عن فرسه عند بوابة دمشق لكى يدخل المدينة المقدسة ماشيا».

وفى ذلك الحين كان إعلان بلفور قد صدر. وقُيّض له أن يكون الأساس

الواضح للانتداب الذى فرضته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م، والذى أدارت بريطانيا بمقتضاه الأراضى الفلسطينية حتى أعادت الانتداب ثانية إلى الأمم المتحدة التى خلفت عصبة الأمم، عند إعلان مولد إسرائيل دولة مستقلة سنة ١٩٤٨م. وقد تمثلت الصعوبة فى أن البريطانيين كانوا قد أظهروا شيئًا مختلفًا للعرب، ولم يكن بوسعهم أن يبقوا مخلصين لكل من الجانبين (على الرغم من أن الإعلان كان قد أشار إلى هذا الاتجاه) ويقول الإعلان:

«إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين، وسوف تبذل ما فى وسعها لتسهيل إنجاز هذا الهدف؛ إذ إن من المفهوم تمامًا أنه لن يتم فعل شىء يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية فى فلسطين، أو الحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر».

وربما تكون القضية هى أن الخطوات النهائية تجاه الإعلان وتبنى الانتداب على فلسطين قد اتخذت لأسباب أخلاقية وليس لأسباب ألفية - أى أسباب بلفور وليست أسباب شافتسبرى. ولكن بدون مناورات الأخير لتحريك السياسة الخارجية إلى حيث كانت فى نهاية القرن، فإن الظروف ستكون مختلفة لدرجة أن مثل هذا الإعلان سيكون غير مقنع (أو عبثيًا). ومكانة بلفور لا تتلو مكانة شافتسبرى فى الزمن فقط، ولكن الأول صار هو الشرط الأولى للثانى. **وفى خيال الإنجليز، كان الرب ما يزال له غرض لصالح الأمة باعتبارها قوة حضارية وشرطيًا فى العالم، تقوم بدور من يصحح أخطاء الآخر، ومن يحمل ما أسماه روديارد كيبلينج بطريقة نصف ساخرة «عبء الرجل الأبيض». وسواء كانت ستحفز فى النهاية القدوم الثانى للمسيح أم لا، فإن إعادة اليهود إلى إسرائيل كانت عملاً مناسبًا للإنجليز.**

وفى كتابه «The Church of England and the First World War» يسجل «آلان ويلكنسون» أن:

«كانت حرب القرم هى آخر حرب إنجليزية تبدأ بإعلان الصيام العام، فأثناء الحرب أدت الكوارث العسكرية إلى القيام بصيام عام آخر. وتم إعلان رأيين فى

الأهمية الروحية للحرب من جانب القساوسة: أن الحرب كانت واجبًا مهيبًا فرضه الرب على الأمة؛ وأنها كانت عقابًا إلهيًا على عدة خطايا قومية متنوعة. وعلى الرغم من المواعظ والخطب فى معظمها كانت تعلن أن الحرب عادلة، فإنها كانت تؤكد أيضًا على شرور الحرب والمعاناة الناجمة عنها. وفى الدوائر والأوساط الإنجيلية كان الاعتقاد منتشراً أن انجلترا قد حلّت محل اليهود كشعب الله المختار وأداته. وكانت الهزائم أو الانتصارات فى الحرب تفسر كثيراً بمصطلحات الثواب أو العقاب الإلهى. وبينما استمرت الحرب، وصار من الأصعب تقديمها على أنها حملة صليبية، تحول رجال الكنيسة إلى تصويرها على أنها حماقة إنسانية يمكن أن يستخدمها الرب لأغراضه، كأن ينتشل انجلترا مثلاً من أنانيتها».

وبمنتصف القرن التاسع عشر كان للإنجيليين حضور قوى فى الحياة سواء فى البلاد أو فى البرلمان. ولكن على الرغم من أن «ألفريد تنيسون» الذى كان فى ذلك الوقت قد حظى باعتراف عالمى بأنه أحسن شعراء انجلترا، قد شارك فى بعض هذه المشاعر الوطنية فإنه لم يكن إنجيليًا. إذ كانت توجهاته صوب أسلوب واسع متحرر من الكنيسة الأنجيلكانية أقرب إلى كينجسلى منه إلى شافتسبرى. والربط الدقيق بين انجلترا والشعب المختار ربما يكون قاصراً على أولئك الذين ما يزالون يعتبرون الكتاب المقدس مرشداً مفيداً فى السياسات المعاصرة. بيد أن إحساسًا أكثر غموضًا وعمومية بأن انجلترا كانت أمة خاصة ذات دور خاص، وأن هذه الخصوصية تحظى بموافقة إلهية ضمنية بشكل ما، كان منتشرا على نطاق أوسع كثيراً، ومن الواضح أن تنيسون كان يشارك فيه. والواقع أنه صار السمة الرئيسية للعصر الڤيكتورى. وهذه هى الكيفية التى وصف بها الشاعر، فى الجزء الثالث من قصيدته المشهورة «Maud»، كيف تعرف على واجبه و واجب أمته فى الذهاب إلى الحرب فى سبيل الحق:

من أجل السلام الذى أتخيله لا سلام تم إرساؤه

والآن على جانب البحر الأسود أو بحر البلطيق

والأفواه المميتة الطاحنة فى اللهب الآتى من القلعة

وزهرة الحرب الحمراء بلون الدم لها قلب من نار
دعها تلتهب أو تخبو، والحرب تتدحرج مثل الريح
فقد برهنا على أننا نملك شجاعة الدفاع عن قضية، وأننا نبلاء ما زلنا
واستيقظت أنا، كما يبدو، بعقل أفضل
إنه من الأفضل أن تحارب من أجل الخير بدلاً من أن توبّخ الشر
لقد شعرت بأرض وطنى، إننى واحد مع نوعى
إننى أحتضن غرض الرب والقضاء المحتوم

وفيما بعد، تسببت حرب البوير، والتى نشبت ضد المستوطنين الهولنديين من أجل السيطرة على جنوب أفريقيا (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢م)، فى انقسام مرير فى الرأى العام البريطانى. على الرغم من أن كلا الجانبين كان يصوغ مجادلاته فى مصطلحات دينية. وبعض الاشتراكيين المسيحيين ممن تبرأوا من الحرب هللوا لأخبار الانكسارات البريطانية فى ميدان القتال باعتبارها عقابًا إلهيًا على الغطرسة الإمبراطورية البريطانية. وهناك أكثر من تلميح إلى أيديولوچية الشعب المختار يكمن وراء مثل هذه الآراء. وكان هناك آخرون يؤيدون هذه الحرب، على أساس أن الإمپريالية تمثل فضائل الأخوة والخدمة؛ بينما امتدح البروفيسور «بيڤان ـ H.E.J. Bevan» فى خطبة شهيرة الحرب باعتبارها وسيلة يمكن لبريطانيا أن تصبح نبيلة مرة أخرى ـ وهذه مجددا لمحة إلى فكرة الشعب المختار:

«لا يعطى التاريخ سوى تأييد ضئيل لنظرية أن أمة عظمى تكون بالضرورة مجردة من الأخلاق بسبب حرب مثل هذه. بل إنها تثير وتوقظ النزعة الوطنية من غفوتها، وتستدعى المواطنين من الاستمتاع بترف السلام، ومن المصالح الأنانية والدنيا، إلى التضحيات وإنكار الذات من أجل قضية عامة. وهى توقظ فى الكثيرين ضميرًا حيًا و وعيًا بإمكانية الهلاك وعدم الأمان فى الشئون الإنسانية، وتدمر الحواجز الاصطناعية بين طبقة وطبقة، وتُعلّم الكثيرين الصلاة.

كانت هذه ما تزال إلى حد كبير هى الحالة عندما ذهبت بريطانيا إلى الحرب سنة

١٩١٤م. ولكن الكنائس، وكنيسة انجلترا بصفة خاصة، كان فى ذهنها أيضًا الدرس المهم الذى استخلصته من تاريخ الخلاص الذى يرويه العهد القديم - أن سوء العاقبة يلحق بالأمة التى خسرت عطف الرب. ومن ثم لم تكن الحرب مجرد متابعة لتسميتهم رجال الرب، ولكن أيضًا باعتبارهم وطنيين إنجليزًا يرغبون فى النصر بميدان المعركة مما جعل زعماء الكنيسة يبدأون فى القلق بشأن النغمة الأخلاقية للأمة كلما تطورت الحرب العظمى. كما أن هذه لم تكن ببساطة مسألة إنتاج طبقة أفضل من الجنود الذين سيحاربون بجد ومثابرة؛ إذ إن الرب يسيطر على تلك الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرة الإنسان، والتى غالبًا ما يتوقف عليها النصر فى ميدان المعركة - الطقس، والمصادفات السعيدة، والتخمينات المحظوظة، وكون القوات فى المكان الصحيح وفى الزمن المناسب، وما إلى ذلك. وهذه كلها فى متناول العناية الإلهية - بشرط أن تكون العناية الإلهية مهيأة جيدا. وعندما لم «تنته الحرب بحلول عيد الميلاد»، كما كان متوقعًا على نطاق واسع، عندما انطلقت القوة العسكرية البريطانية فى بداية الأمر إلى فرنسا فى ذلك الصيف، كان ما تستطيعه الكنيسة للمساعدة هو دعوة الأمة للصلاة والتوبة؛ لكى تضمن أن الرب سوف يحارب إلى جانب بريطانيا.

ويكتب ويلكنسون أنه عند اندلاع الحرب كان هناك توقع على نطاق واسع، بحدوث إحياء دينى وطنى؛ والواقع أنه فى بداية الأمر بدا أن الحضور فى الكنائس قد تزايد. ولكن بحلول سنة ١٩١٥م لم يحدث أى إحياء، وعقد كبير أساقفة كانتربورى الدكتور راندال داڤيدسون لجنة؛ لكى يستشيرها فى «الدعوة الروحية للأمة والكنيسة، حول ما تحدثه الحرب وما يمكن عمله». وأوصت ببعثة وطنية، هدفها شحذ الإحياء الدينى الذى كان يُظن آنذاك أنه قد تأخر عن موعده. وإذ استهلت اللجنة بيانها بفقرة من الإصحاح الثلاثين فى سفر التثنية (١٥ - ١٦) تقول: «انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر. بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه». أعلنت أن الرب له غرض لصالح الأمة ولكن الأمة تجاهلت الرب:

«إن انشقاقنا الاجتماعى الكبير ونزاعنا الصناعى العظيم يوضحان أن هناك خطأ

جذريّا فى حياتنا الوطنية؛ إذ إن لدينا قضية عادلة فى الحرب العظمى؛ ولكن الحرب الأهلية التى كانت تبدو وشيكة فى أيرلندا فى صيف ١٩١٤م والحرب الصناعية العظمى التى جرت الاستعدادات لها آنذاك، كانتا دليلين على أن هناك خطأ بيننا».

وليست هناك حاجة إلى القول بأن مثل هذه اللجنة لم تكن تسعى إلى الشفاء من هذا الاضطراب من خلال الاستجابة إلى الشكاوى العادلة للأيرلنديين أو بتأييد اتحادات التجارة فى نضالها الطويل لإعطاء العمال البريطانيين الأجور التى تعينهم على المعيشة. وقد قال أعضاء البعثة: إن الأمة يجب أن تكفّر عن خطاياها وتعود إلى الرب. فبالخطيئة، كما أوضحت حرفيّا المواعظ والخطب التى لا تحصى من جانب كل منبر ونمط أنجليكانى فى البلاد، كان رجال الكنيسة يعنون السكر، والزنا، والمقامرة، وتجاهل الحضور إلى الكنائس، وعدم الصلاة، وعدم إخضاع مصالح الذات لصالح المجموع، وكانت النقطة الأخيرة لها مضامين واضحة فى زمن كانت تبذل فيه جهود ضخمة لإعادة بناء قوة الجيش بالتجنيد التطوعى. وإحدى الطرق التى كان يمكن للشاب أن يكفّر بها عن خطاياه كانت الانضمام إلى الجيش أى الذهاب إلى الحرب، حسبما قال أحد القساوسة البارزين، والذى كان بحد ذاته بداية الاستسلام لمشيئة الرب.

كانت «المهمة الوطنية للتوبة والأمل» نجاحًا هائلاً من حيث إنها عملت على تعبئة كل عصب وعضلة لدى كنيسة انجلترا، وكل ذرة فى طاقتها، لقد كانت النسخة الروحية لحرب شاملة. وبالنسبة لمؤسسة اشتهرت بخمولها، كان مثل هذا الجهد أمرًا غير عادى. بيد أنها كانت فاشلة فى كافة الجوانب الأخرى تقريبًا - فيما عدا أن البرلمان حدد الساعات التى يمكن فيها أن تبيع المحلات العمومية المشروبات الروحية. وبدا لرجال الكنيسة أن أولئك الذين توجههم الكنيسة كانوا هم أولئك الذين كانوا فى رحاب الكنيسة بالفعل، ولم تتصل برجل الشارع. بل إن الرسالة، التوبة والأمل، صارت مسئولية بقدر ما كانت ميزة، وبدأ محررو الصحف وكتّابها يتساءلون: لماذا ينبغى على بريطانيا أن تتوب، على أساس أن

الحرب لم تبدأ من جانب بريطانيا، ولكن بدأتها ألمانيا بعدوانها الوحشى الظالم ضد «بلچيكا الصغيرة المسكينة»؟، وبينما تزايدت أرقام الضحايا مع الحملات العسكرية سنة ١٩١٦م، والأخبار الواردة عن الكوارث على جبهة السوم بشكل خاص، صار الرأى العام البريطانى أقل تسامحًا تجاه مفهوم أن مواطنيه الذين يرتدون الزى العسكرى على الجبهة كانوا من الخُطاة المذنبين، وأن مصيرهم المرعب قدره الرب لهم على نحو ما عقابًا لهم. وثمة صمت محرج كتم التطبيق الصارم للأفكار البروتستانتية عن الخلاص - أن الجنود الذين ماتوا دون قبول المسيح مخلّصًا لهم سوف ينالون عقابًا أبديًا. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الموت فى المعركة من أجل الملك والبلاد على أنه يساوى بشكل ما فعل الإيمان المسيحى، وهكذا ارتبطت قضية المسيح وقضية الأمة المختارة ببعضهما ارتباطًا وثيقًا.

وتم تقديم تفسيرات رسمية متسرعة لاختيار «التوبة» الفج فى عنوان المهمة - وكان أحد الاقتراحات هو أن الناس ينبغى أن يكفروا عن «خطايا الحضارة الأوروبية» التى أدت إلى الحرب - ولكن ذلك لم يستحوذ على خيال الأمة. فلماذا يجب أن يعاقب الرب البريطانيين على خطايا الألمان؟ وكانت نغمة خطاب كبير أساقفة يورك كوزمولاند نمطية دالة على إخفاقات كثيرة مشابهة:

«لقد أسميناها مهمة وطنية للتوبة والأمل: التوبة لأننا مدعوون إلى أن نحض الرجال والنساء فى كل مكان على التوبة عن الخطايا التى وصمت حضارتنا وجلبت عليها حكم الرب الظاهر، والأمل لأنه أثناء الفترة الأخيرة من هذه المحنة المرعبة وفى خضم الكبح المتزايد والتضحية والأسى المتصاعد، سيكون شعبنا بحاجة إلى الأمل، وفى تلك الأيّام الصعبة القادمة، حينما يكون النظام القديم قد انتهى وسيكون من واجب الأمة أن تبحث عن نظام جديد فى عالم جديد، يجب أن نضع أمام عقول الأمة الأمل الواحد، المسيح، عقله وروحه، لإعادة بناء العالم الجديد».

وبنهاية سنة ١٩١٦م، حسبما يقرر «ويلكنسون»، صارت بعض الحقائق غير

المريحة واضحة جلية. «فى جميع أنحاء البلاد كان الذين حضروا الخدمات الكنسية الخاصة أقلية حقّا من خارج الكنائس، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا يحضرون الاجتماعات العامة». ومن ناحية أخرى تلقت الحياة الداخلية فى الكنيسة حافزًا، ونتيجة لأن زعماء المهمة من رجال الكنيسة حصلوا على انطباع أكثر واقعية عن الفجوة التى كانت قد اتسعت بينهم وبين الرجل العادى. وهكذا فإن التوبة التى حثت اللجنة الأمة عليها لم تحدث حقّا سوى داخل الكنيسة نفسها، مع الكثير من ضرب الصدر (ندمًا) الذى تضمن تكوين ما لا يقل عن خمس لجان للتحقيق. ولكن كنيسة انجلترا أظهرت حينذاك، كما أظهرت منذ ذلك الوقت، قدرًا بالغًا من البكاء على الذات والواقع. إنها أبدت ما يكاد يكون اهتمامًا مزدوكيًا (تعذيب الذات) فى التعامل مع أخطائها، كما لو أن هناك راحة معاكسة يمكن الحصول عليها بهذه الإشارة إلى أن مذهب الفساد الكلى للإنسان ـ كان رجال الكنيسة كلهم من الرجال ـ قد برهن على صحته مرة أخرى.

كان التحدى الخاص لكنيسة انجلترا فى هذه الحرب، باعتبارها الكنيسة الوطنية الراسخة التى كان حاكمها الأسمى هو الملك، هو أنها لا تستطيع سوى أن تلقى بثقلها لمؤازرة الحرب. وبذلك كان كل خيار آخر ـ السلام، الحياد، التبرؤ من الحرب، النقد بالنبوءات، المعارضة، بل حتى التأييد الواعى جديًا ـ مغلقًا. وإذا ما كان العامة قد حكموا فى النهاية بأن الحرب كانت تستحق القيام بها، فإن كنيسة انجلترا حينئذ يمكنها أن تنعم بدفء أنها أثبتت كونها على حق. ولكن إذا ما كانت العاطفة الوطنية غير واثقة من جدّارة الصراع، والطريقة التى تم بها فوق أى اعتبار آخر، فإن الكنيسة وما أظهرته بشكل لافت من تضامن مع الدولة كان من المحتمل أن يبرهن على أنه عبء ثقيل على كاهلها. وقد تبلور موقف الكنيسة العام تجاه الحرب فى المهمة الوطنية، التى كانت قد رفعت الرهان بشكل كبير، وربما كانت المقامرة مبررة، على الرغم من أن أولئك الذين أخذوا بها، الذين أساءوا الحكم على فرص النجاح لا يمكن أن تنسب إليهم الكثير من الشجاعة الأدبية لهذا. وثمة اقتباسان، أحدهما من سنة ١٩١٥م وثانيهما من سنة ١٩١٦م، يظهران زعماء الكنيسة يتبنون نغمة تبدو فيها إساءة التقدير بطريقة مدهشة؛ إذ إننا نعرف الآن كيف كان إحساس الناس عن الحرب بمجرد أن انتهت.

والاقتباس الأول من سنة ١٩١٥م، من أسقف لندن، الدكتور «إنجرام»، الذى يصفه ويلكنسون بأنه «الصوت الذى ارتفع فوق أصوات كل رجال الكنيسة الآخرين. وقد أعلن فيما كتبه فى صحيفة كنسية تسمى «الجارديان ـ Guardian».

«إننى أظن أن الكنيسة يمكن أن تساعد الأمة على أفضل نحو، أولا بأن تجعلها تدرك أنها مشتبكة فى حرب مقدسة، وألا تخشى من قول هذا. لقد مات المسيح يوم الجمعة الحزين من أجل الحرية والشرف والفروسية، وأولادنا يموتون من أجل الأشياء نفسها. وإذا أدركت الأمة أن كل شىء يستحق الحياة فى الدنيا معرض للخطر، فإنها لن تتردد فى أن تسمح بتعبئة نفسها. إنكم تطلبون منى النصيحة فى جملة عما يجب على الكنيسة أن تفعله. **وأجيب عبئوا الأمة من أجل الحرب المقدسة**».

والاقتباس الثانى من هنسلى هنسون، وقد صار فيما بعد أسقف «دورهام» وكان مفترضًا على نطاق واسع أنه صوت الاعتدال والحداثة. ففى مقالة له سنة ١٩١٦م تنبأ فيها (بشكل صحيح) بأن «المسيحية المنظمة لا تخرج بصورة جيدة من أزمة العالم»، واستمر هنسون لكى يحدد الآمال التى كان يعلقها على الدور المستقبلى للكنيسة فى الوطن:

«سوف يبزغ اسم انجلترا من الصراع العالمى بعناوين جديدة للتبجيل الإنسانى، وأعز من ذى قبل على عقول الرجال الإنجليز، مشحونة بشكل أكثر ثراء عن ذى قبل بالارتباط بالخدمة العامة والذكريات المجيدة عن البطولة الشخصية. وسوف تحصل كنيسة انجلترا على مجد من شخصيتها التاريخية بوصفها مؤسسة وطنية. وسوف يميل الرجال لأن يقدموا لها محاولة منصفة عادلة، مستعدين لأن يعترفوا بحقها فى التعبير عن الديانة المسيحية للرجال الإنجليز ومن أجلهم... إن رابطة جديدة بين الكنيسة والأمة سوف تتشكل فى جحيم البلوى».

كان أولئك الذين قادوا الكنيسة فى الحرب العالمية الأولى فى كل أنواع الطرق يشبهون ـ وغالبًا ما كانوا على معرفة شخصية ـ بأولئك الذين تولوا قيادة الجيش البريطانى. فقد كان لديهم نفس التصميم العنيد على إعادة فرض الفشل، ونفس

عدم الاستعداد للنظر فى تغيير الأساليب، ونفس القصور فى الخيال، وفوق هذا وذاك نفس القصور فى السخرية الواعية. كانت تلك فى الواقع هى روح العصر، أو على الأقل روح الطبقة العليا والشرائح العليا من الطبقة الوسطى التى كان يخرج منها الرجال الذين يتولون قيادة الأسقفيات الإنجليزية والقوات العسكرية الإنجليزية. ولكن الأمر تغير فى زمن الحرب، وكان التغيير إلى حد كبير من أسفل إلى أعلى، ولذلك كان آخر من سمعوا بالتغير الجذرى وواءموا أنفسهم معه هم أولئك القابعين فوق القمة.

من الشائع أن الحرب العظمى سحقت الثقة بالذات فى الإمبراطورية البريطانية قرب قمتها وبطريقة مدمرة مثلما سحق جبل الجليد السفينة تيتانيك، التى كانت أعظم سفينة بُنيت على الإطلاق، قبل ذلك بعامين. وليس من الواضح تمامًا أن الصدام جعل فجأة مجموعة من الفروض التى كانت تكوّن ثقافة كاملة، تبدو وقد عفا عليها الزمن، وهى مجموعة من الفروض التى كانت تلخيصًا لجنس بأسره. وكثير من هذه الفروض كانت فروضًا دينية. وكان من بينها الإيمان بأن الرب منح انجلترا غاية خاصة. وكانت طاعة تلك الغاية هى التى جعلت انجلترا تذهب إلى الحرب. وبهذا كانت انجلترا تفى فى كرم وحماسة بنصيبها فى صفقة الميثاق، أى أن يضمن نجاة انجلترا. وإذ كان هناك بعض التصحيح الذى ينبغى القيام به فى العملية، فإن المقصود به أن يكون عقابًا خفيفًا، بحيث يكفى للشفاء من التراخى والخطيئة، ولم يكن المقصود به أن يكون جحيما على الأرض. ولكن هذا ما حدث.

وحدثت السخرية الدرامية فى التفاعل المتبادل بين ما هو فى الذهن وما يحدث حقًا. فالبطلة تظن أنها فى طريقها إلى الشفاء، ونحن نعرف أنها فى سبيلها إلى الموت. وينتج المزيج نوعًا من السخرية التراجيدية، وهو تعليق على حماقة التفاؤل. وبعيدًا عن المؤرخين العسكريين، فلا شك فى أن أحسن كتاب عن الحرب العالمية الأولى هو «The Great War in Modern Memory» الذى كتبه أستاذ أمريكى فى الأدب الإنجليزى، هو پول فوسل. فهو يقرر أن الحرب برمتها تدعو إلى السخرية؛ لأن الحرب كلها أسوأ مما هو متوقع:

«كل حرب تشكل سخرية من الموقف؛ لأن وسائلها لا تتناسب بشكل ميلودرامى مع غاياتها. وفى الحرب العظمى تم القضاء على ثمانية ملايين شخص؛ لأن شخصين هما الأرشيدوق فرنسيس فرديناند وقرينته قُتلا رميًا بالرصاص... لقد كانت الحرب العظمى أشد سخرية من أى حرب أخرى سبقتها أو تلتها. فقد كانت إحراجًا شنيعًا للأسطورة التحسنية الشائعة التى حكمت الوعى العام على مدى قرن من الزمان؛ إذ إنها تناقض فكرة التقدم...».

والتحسنية، أى الإيمان بأن البشرية يمكن أن تتحسن وأنها تتحسن، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يسمى رأى الهويج فى التاريخ. والتفسير الهويجى للتاريخ، الذى نشره اللورد «ماكولى» فى منتصف القرن التاسع عشر، يرى أن الحضارة الإنجليزية هى ذروة التقدم السياسى. ومع التدين الإنجيلى العنيف والتزام بالإصلاح السياسى المستمر، كان ماكولى وكثير من الأجيال التالية من الشعب الإنجليزى الذين تأثروا به، متأكدين من أن الرب يقف إلى جانب انجلترا - وكانوا متأكدين من هذا تمامًا لدرجة أنهم اعتبروا أن المؤسسات الإنجليزية والدين واللغة والعادات والسلوك والثقافة الإنجليزية هى الهدف الأسمى للحضارة فى جميع أنحاء الدنيا. كما كانوا واثقين طبعًا أن الرب هو الذى شكّل كل تلك الأشياء بفضل عنايته. ناهيك عن أنه جلب للإنجليز المكاسب التى حققتها «الثورة المجيدة» سنة ١٦٨٨م (التى طردت الملك الكاثوليكى چيمس الثانى) والتى نبعت منها كل الخيرات التالية (من خلال منطق الأحداث من ناحية، ومكافأة إلهية من ناحية أخرى).

ولكن السخرية حلّت مع القصف المدفعى والرصاص والدبابات والأسلاك الشائكة والوحل فى ميدان المعركة الخالد. فقد كانت الأغنية التى تنشرها القوات البريطانية على سبيل المرح، أثناء سيرها إلى القتال تقول:

«بوسعنا أن نراهم

بوسعنا أن نراهم يحومون حول الأسلاك الشائكة العتيقة».

وهى أغنية تصف المصير البشع الذى لقيه أفراد كتيبة كاملة. لقد اكتسب

البريطانيون بسرعة موهبة المرح الأسود بالشكل الذى تسبب فى حيرة أقرب حلفائهم. وكتب فيلبس چيبس: «كلما كانت نبرة التمرد فى ذلك أعلى، كلما ضج الناس بالضحك». لقد كان ذلك هو «ضحك البشر الفانين من الحيلة التى دبرها لهم قدر حديدى».

ويستمر ڤيليب چيبس قائلاً: «كانوا قد تعلموا أن هدف الحياة كلها هو الوصول إلى الحب والجمال، وأن الجنس البشرى فى تقدمه صوب الكمال قتل الغريزة الوحشية والقسوة والتعطش إلى الدماء، وقانون البقاء الوحشى البدائى الذى يعتمد على المخالب والأسنان، على الفأس والهراوة. وكان الشعر كله، والفن كله، والدين كله، يبشرون بهذه البشارة ويزفون هذا الوعد. والآن تكسر المثال والنموذج مثلما تتكسر زهرية من الصينى ارتطمت بالأرض وتهشمت. لقد كان التناقض بين «هذا» و «ذاك» مُهلكًا. . وكان مرح الروح زمن الحرب هو الذى يزمجر بالضحك عندما يرى أن تلك الكرامة والكياسة كلها قد صارت نهبًا للحرب».

كانت تلك أنباء شؤم بالنسبة للديانة الوطنية، فمن الناحية العسكرية كانت الحرب قد بدأت بشكل طيب تمامًا. ولأن البريطانيين كانوا يفضلون اعتبار الأسطول الملكى السلاح الرئيسى للدفاع، فإنهم احتفظوا فقط بجيش محترف صغير فى زمن السلم، وكان ذلك أمرًا جيدًا للغاية. وذهب حوالى مائة ألف جندى إلى فرنسا وبلچيكا فى المرحلة الأولى من الحرب، وسرعان ما وجدوا أنفسهم مشتبكين فى أكبر اختبار لنظام ميدان المعركة، أى التقهقر المنظم أثناء القتال (ما يسمى الانسحاب من مونس). هذا الانسحاب الذى اعتبرته معظم الكتب الدراسية العسكرية فيما بعد انسحابًا مخزيًا أمام قوة عسكرية متفوقة، سرعان ما تحول إلى قصة مجيدة أخرى فى التاريخ البريطانى. وتحت ما كان مفترضًا فى بريطانيا أنه حماية إلهية ـ فإن الحكايات شاعت عن ملاك فى السُحب كان يتجلى أمام بعض القوات السائرة إلى القتال ـ تماسك الجيش بشكل كاف بحيث صمد وقاتل، وأعطى صورة طيبة عن نفسه. وفى انطلاقة مبكرة للسخرية البريطانية زمن

الحرب، أخذ الجنود الناجون النظاميون وصف القيصر للحملة العسكرية البريطانية بأنها «جيش صغير يبعث على الاحتقار»، وخلّدوه بأن أطلقوا على أنفسهم «العواجيز الذين يستحقون الاحتقار»، بيد أن الباقين منهم استمروا فى زمن السلم على إقامة استعراض سنوى تكريمًا لزملائهم الذين سقطوا فى الميدان على مدى نصف القرن التالى أو أكثر، وظلوا فخورين جدًا بالاسم الذى أطلقه عليهم قيصر ألمانيا.

وشهدت السنة التالية أول انتكاسة كبرى فى الحرب، وهى الحملة الجسورة، ولكنها كانت سيئة التخطيط، للاستيلاء على شبه جزيرة جاللليبولى التى تحرس ممر الدردنيل الذى يصل بين البحر المتوسط والبحر الأسود. فقد كان الجنود الذين ذهبوا إلى فرنسا سنة ١٩١٤م نظاميين كلهم تقريبًا، أما أولئك الذين حاربوا فى تركيا فكان جزء منهم نظاميين ولكن أيضًا إقليميين (بمعنى أنهم ميليشيا لبعض الوقت، وكثيرون منهم خدموا جنودًا نظاميين فى زمن السلم)، ونظاميين ومتطوعين من الممتلكات البريطانية، ومن استراليا أساسًا. وكانت الجيوش البريطانية سنة ١٩١٤م وسنة ١٩١٥م على السواء قد اعتراها الضعف الشديد؛ بسبب الصراع الذى لا يتوقف وعدد الضحايا المتصاعد لدرجة أنه تقرر البدء من جديد وتشكيل جيش جديد من المتطوعين جزئيًا، ثم فى النهاية من خلال التجنيد الإجبارى أيضًا. وكان هذا ما سُمى باسم «جيش كتشنر»، تيمنًا باسم بطل الحرب الاستعمارية الذى كان أيضًا وزير الحرب فى ذلك الحين، وهو اللورد كتشنر. وكان الغرض منه أن يستعد ويتدرب، ثم ينفذ الاندفاع الكبير على الجبهة الغربية التى كان القادة البريطانيون مقتنعين بأن الاستيلاء عليها سوف يحول الحرب إلى صالحهم. وعلى أية حال، فإن الفرنسيين كانوا يتلقون ضربات مرعبة فى ڤيردن، وكان أى مجهود بريطانى كبير فى أى مكان آخر كفيلاً بأن يسحب بعضا من القوات الألمانية التى تواجههم.

وهكذا كانت بريطانيا وجيشها مستعدين لخوض معركة ضد العدو كان المقصود بها تحويل مسار الحرب، ولكن فشلها فى تحقيق ذلك حوّل التاريخ

البريطانى مع هذا. وقد تكرر سماع كل تفاصيل معركة السوم. وإذ كانت القيادة العليا البريطانية مدركة لأن وحدات كثيرة جدّا من قواتها لم تخض الحرب من قبل، وأنهم كانوا يعتمدون فى تجنيد ضباطهم على رجال لم يكونوا من نفس الطبقة الاجتماعية التى جاء منها الضباط النظاميون فى سنة ١٩٤١م وسنة ١٩١٥م، فإنها أصدرت تعليمات محددة بما ينبغى أن يحدث فى المعركة بينما تتطور كل مرحلة من مراحلها. ويلاحظ «فوسل» ما علّق عليه عدة مؤرخين عسكريين: نقص الثقة، بل ونقص الاحترام، الذى كان كبار الضباط البريطانيون يظهرونه تجاه الرجال الذين يتولون قيادتهم أثناء المعركة. ويكتب أن هناك سببًا آخر يمكن إرجاعه إلى النظام الطبقى والفروض التى أفرزها وأقرها. فقد كان العسكريون النظاميون فى القوات البريطانية يبدون احتقارًا ظاهرًا للرجال الجدد الذين تم تدريبهم بسرعة من «جيش كتشنر» والذين تم تجنيد عدد كبير منهم من العمال فى بلاد الوسط (ميدلاند) والشمال.

«لقد افترض المخططون أن هذه القوات - التى تجهزت للهجوم بحمولة تصل إلى ٦٦ رطلاً من المعدات لكل فرد - كانت بسيطة وحيوانية بحيث لا يمكن أن تعبر الفضاء بين الخنادق المعادية سوى فى ضوء النهار الكامل وتصطف فى صفوف أو موجات. وكان هناك شعور بأن القوات سوف ترتبك بأى تكتيكات أكثر ذكاءً مثل الاندفاع من مخبأ إلى مخبأ، أو تسير وراء القصف الزاحف المتواصل».

ولا يقول فوسل هذا، ولكن من الممكن أن نتحرى فى الثقة الزائدة العنيدة التى أبداها القادة أكثر من لمحة إلى التفكير بطريقة الشعب المختار - أنه مع كل هذا الخطر، لم يكن ممكنًا أن تمضى الأمور فى طريق الخطأ بطريقة بالغة السوء؛ ذلك أن حماية الرب المقدسة ستكون فى متناول القوات البريطانية مجددًا، كما كان يحدث دائمًا من قبل. وكان دوجلاس هيج، القائد العام البريطانى، مفرطًا فى الثقة؛ إذ إن تجهيزاته لم تترك مكانًا للخطأ، ولم تُهمل أية تفاصيل فى التخطيط العسكرى، وكتب إلى زوجته قبل المعركة بوقت قصير «إننى أشعر أن كل خطوة فى خطتى تم اتخاذها بمساعدة إلهية». و افتراض أن «الرب يساعد أولئك الذين

يساعدون أنفسهم» لا بد أنه قد كسب له قدرًا كبيرًا من المساعدة الإلهية من رب الجيوش. ومثل هذه المشاعر كانت تجد من يشارك فيها عالميًا؛ إذ إن أمة كاملة كانت على وشك المخاطرة بدماء رجالها وحياتهم على أساس افتراض أنها فعلاً الشعب المختار.

وساءت كل الأمور؛ إذ إن المدفعية الألمانية، والمدافع الآلية الألمانية والأسلاك الشائكة، تمكنت من أن تصد موجة بعد موجة من المشاة البريطانيين المتقدمين والذين واصلوا التقدم بشكل لا يكاد يصدق فى ميدان المعركة الذى لم يلبث أن غطته جثث الموتى وأجساد الذين يعانون سكرات الموت. وصار أول يوم فى يوليو ١٩١٦م أسوأ يوم فى تاريخ الجيش البريطانى. فمن بين مائة وعشرة آلاف رجل فى الهجوم الابتدائى، كان الضحايا أكثر من ستين ألفًا، وعدد كبير من أولئك الذين قتلوا فى الحال تُركوا راقدين فى ميدان المعركة لعدة أيّام، وكانت صيحاتهم الجماعية من الألم والعطش تولد صراخًا مرعبًا فى الليل كان يُسمع فى مناطق بعيدة خلف خطوط القتال ـ فقد كان من الخطورة بمكان محاولة إنقاذ أكثر من حفنة من الأفراد. وفى أثناء النهار كانت صيحاتهم تغرق فى ضجة المعركة المستأنفة؛ لأن الجنرالات استنتجوا أن خططهم المحبوكة لليوم الأول ما تزال صالحة لليوم الثانى أو اليوم الثالث. واستمرت المعركة حتى نوفمبر، ومع هجوم تلو هجوم، لم تحقق سوى الثبات أو تقدم ياردات قليلة مما كشف عن جهد بلا نهاية وخسائر جسيمة. ومن الصعب تجنب الانطباع بأن العناية الإلهية كانت ما تزال هى المعول عليها فى كسب المعركة، وأن هيج الذى كان كالڤينيّا اسكتلنديًا صارمًا، أحس أن الرب ينبغى أن يتاح له الوقت الكافى؛ لكى ينضم إلى المعركة ويسلمه النصر. وبدا وكأن الرب قد تخلى عن منصبه بشكل مؤقت. بيد أن هيج لم يساوره أدنى شك فى أنه سوف يعود إليه. والواقع أن أفضل طريقة لضمان مساعدة الرب هى المحافظة على الإخلاص للخطة أى الوفاء بنصيب بريطانيا. والاستمرار فى المحاولة كان حرفيًا محاولة إيمانية؛ إذ إن الفشل فى محاولة الإيمان كان يمكن أن يعنى خسران الحرب.

ولم تكن نهاية عذاب سنة ١٩١٦م سوى تمهيد للرعب الذى تجدد سنة ١٩١٧م

وأكثر معركة مخيفة خاضها البريطانيون على الإطلاق، وهى معركة پاسشندايل (رسميًا معركة يپرس الثالثة) إذ لم يكن هيج قد فقد قناعته بالنصر البريطانى النهائى، ولكنه توصل إلى اعتبار الخسائر الضخمة بمثابة تضحية دم ضرورية.

والأسطورة الشائعة عن أنه كان جاهلاً بالظروف السائدة على الجبهة لا سند لها. فقد كان على علم تمامًا بكل المراحل، وغالبًا ما يعبر فى مراسلاته الخاصة عن الألم بسبب الأحوال على الجبهة، وبسبب معدل الخسائر (كان العدد النهائى لمجمل القتلى من البريطانيين والكومنولث أقل من المليون قليلاً) ولكن يبدو من المحتمل أن لا أحد سوى رجل متأكد من أن الرب يقف بجانبه يمكنه أن يستمر فى إصدار الأوامر إلى آلاف الجنود بأن يذهبوا إلى حتفهم يومًا بعد يوم. ورد الفعل تجاه هيج بعد الحرب يمكن إرجاعه جزئيًا إلى الطريقة التى اختار لويد چورچ أن يلومه بها على توجيهه لحرب كان هو المسئول عنها فى نهاية الأمر - إذ كان بوسعه عزل هيج فى أى وقت - كما يمكن إرجاعه إلى تخلى البريطانيين عمومًا عن مفهوم أن إسهامهم فى الصراع له أية علاقة بخطط الرب. وقد نُظر إلى هيج على أنه كان يتبع وجهة نظر لاهوتية عن مكانة بريطانيا فى العالم إلى خاتمتها المنطقية، وهى وجهة نظر كانت بقية الناس قد أداروا ظهورهم لها، فى وقت ما بين سنة ١٩١٦م ونهاية الحرب.

كانت حملة كتشنر للتجنيد قد ركزت على أن الأصدقاء يمكن أن يلتحقوا بالجيش ويحاربوا سويًا فيما عرف باسم «Pals Battalions» (أى كتائب الرفاق). وقد كانت هناك شوارع بأسرها فى المدن الصناعية فى وسط وشمال انجلترا تتلقى الأنباء الرهيبة بأن لا أحد من رجالها نجا من الموت. لقد كانت كارثة وطنية. ويتعرف فوسل على نقطة التحول: «لقد تعلم الجيش البرىء تمامًا ما هو الخير وما هو الشر فى السوم يوم أول يوليو سنة ١٩١٦م. إن تلك اللحظة، وهى واحدة من أكثر اللحظات إثارة فى التاريخ الطويل للتحرر الإنسانى من الوهم، يمكن اتخاذها نمطًا لكل أفعال الحرب التى تدعو للسخرية».

والواقع أن هيج واصل الحرب بعناد؛ وتقدم البريطانيون بشكل ثابت من حيث

الحذق والمهارة، واكتشفوا الحرب الجوية، والقصف الزاحف، وقوة المدفع الآلى، واستخدام التغطية، وعدم جدوى الخيّالة، كما أنهم اخترعوا الدبابة. وبحلول خريف سنة ١٩١٨م كان الجيش البريطانى (الذى ضم قوات كبيرة من استراليا ونيوزيلندا وكندا) هو القوة الأولى الرابحة فى الميدان الأوروبى، وبسلسلة من الانتصارات الساحقة التى تم تجاهلها بشكل يكاد يكون تامّا فى حينها وفيما بعد، أوصل الجيش الألمانى المرهق إلى نقطة الانهيار والتسليم، والاستسلام غير المشروط.

ولكنه لم يعد يثق أبدًا فى أن الرب سوف يكسب معاركه نيابة عنه. فمنذ ذلك الحين وصاعدًا كان اعتقاد عامة الناس بأن الإنجليز شعب مختار يؤخذ على سبيل السخرية فقط، وكان من المحتمل بنفس القدر أن ينتج عنها غضب جارف. والحكم النهائى الذى يلعن الوطنية البريطانية التى جمعت بين الرب والمجد فيما قبل الحرب، هو الذى أصدره ويلفريد أوين، فى واحدة من أشهر القصائد - وأكثرها مرارة - عن الحرب العالمية الأولى بعنوان: «Dulse et Decorum»:

منحنون بشكل مزدوج مثل الشحاذين المسنين تحت المخلاة
ركُبنا مضروبة، ونسعل مثل العرافات الشمطاوات
نسب ونحن نخوض فى الوحل
حتى ندير ظهورنا على المشاعل المصاحبة
وصوب راحتنا البعيدة نبدأ مشينا المتعب
يسير الرجال نائمين. وكثيرون منهم فقدوا أحذيتهم
ولكنهم يعرجون، ودمهم مُراق. كلهم يعرجون، كلهم عميان
أسكرهم الإرهاق، صُمّ لا يسمعون حتى قنابل الغاز التى تسقط خلفهم بنعومة
الغاز، الغاز أسرعوا أيها الفتية - نشوة من التسكع والتردد
نضع الخوذات الرثة فى الوقت المناسب

بيد أن شخصًا كان ما يزال يصرخ ويتعثر

ويتخبط مثل رجل فى حريق أو فى الجير

معتم من خلال المربعات الصغيرة والضوء الأخضر الكثيف

كما لو كان تحت سطح بحر أخضر، رأيته يغرق

وفى كل أحلامى أمام منظرى الذى لاحول له ولا قوة

كان يغطس تجاهى ويذوب ويختنق ويغرق

وإذا فى بعض الأحلام الخانقة كان بوسعك أيضًا أن تمشى بخطى وئيدة

خلف العربة التى طرحناه فيها

وترقب العينين البيضاوين تتلويان فى وجهه

وجهه المعلق مثل وجه شيطان مريض بالخطيئة

وإذا كنت تستطيع أن تسمع، عند كل هزة، الدم

يندفع مغرغرًا من الرئة التى أفسدتها الرغاوى والزبد

مقضومة مثل إفراز القروح الدنيئة التى لا شفاء لها على الألسنة البريئة

فإنك ياصديقى لن تحكى بمثل هذه اللذة الفائقة

إلى الأطفال المتحمسين لمجد يائس

الكذبة القديمة : Dulce et decorum est Pro patria mori(*)

ويرى «آلان ويلكنسون» فترة الحرب العظمى ليس فقط باعتبارها النقطة التى يمكن عندها قياس التدهور الإحصائى لكنيسة انجلترا: وإنما هى النقطة التى بعدها كان «مهما فعلت الكنيسة، فإنه لم يعد بوسعها أبدًا أن تعيد بناء نمط سلطتها

(*) هذا بيت شعر باللاتينية للشاعر الرومانى «هوراسيوس» وترجمته « إن من الحلاوة والوفاء أن يموت المرء فى سبيل وطنه» ـ المترجم.

القديمة فى الوطن». وهو يحدد التناقص فى حضور البالغين (فوق خمسة عشر عامًا) صلاة الفصح فى كنيسة انجلترا بنسبة ٩٨ فى كل ألف سنة ١٩١١م، ٩٠ فى كل ألف سنة ١٩٢٥م، ثم ٧٣ فى الألف سنة ١٩٣٩م، و ٦٣ فى الألف سنة ١٩٥٨م، و٤٢ فى الألف سنة ١٩٧٣م. وكان الرقم المعادل سنة ١٩٩٧م ٢٩ فى الألف أو ٢,٩ فى المائة من السكان.

وكما يعترف ويلكنسون أيضًا، فإنه بعد سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة ما يزال إحساس الإنجليز بأنفسهم مطاردًا بتلك الحرب وخيالاتها وصورها، ومطاردًا بالسؤال الذى يبحث عن حل: «ما الخطأ الذى وقع؟». ففى أعقاب الهولوكوست تعين على اليهود أن يسألوا أنفسهم فيما بعد: «أين كان إلهنا فى أوشفتز؟» وقبل هذا بسنوات، كان الإنجليز قد صكوا نفس السؤال: «أين كان ربنا فى معركة السوم؟».

* * *